139

الأبحاث والدراسات

الطائف في عيون بعض المؤرخين والرحالين المتقدمين والمتأخرين المسلمين وغير المسلمين (*)

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب، لغيثان بن جريس. (الطبعة الأولى) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٩ هـ/٢٠١٨).(الجزء الثالث عشر)، ص ص ١٣ – ٩٦ . (الطبعة الثانية/١٤٤٢هـ/٢٠٢٠م)، ص ص ١٣ – ٩٤ . كما نشرت في كتاب: الرحلات والرحالة في الجنوب السعودي في مؤلفات غيثان بن علي بن جريس (ق٢ – ق١٥هـ/ق٨ – ق٢١م)، لمحمد بن مُعَبِّر ،)(الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٤٠ هـ/٢٠١٨).(الجزء الأول)، ص ص ٣٢٩–٤١٨.

القسم الأول

الطائف في عيون بعض المؤرخين والرحالين المتقدمين والمتأخرين المسلمين وغير المسلمين

القسم الأول

الطائف في عيون بعض المؤرخين والرحالين المتقدمين والمتأخرين المسلمين وغير المسلمين

م	الموضوع	الصفحة
أولاً	تمهيد	١٥
ثانيا	التعريف بالمؤرخين والرحالين ومدوناتهم	١٧
	١-عرام بن الأصبغ السلمي (ق ٢-٣هـ/ق٨-٩م)	١٧
	٢-أبو القاسم عبيدالله بن خرداذبة (ق٣هـ/ق٩م)	١٨
	٣-أبو اسحاق الحربي، وأبو الفرج قدامة بن جعفر، واليعقوبي (ق٢-٤هـ / ق٨-١٠م)	١٩
	٤-ابن الفقيه الهمذاني، وابن رسته، والاصطخري وابن حوقل (ق٣-٤هـ /ق٩-١٠م)	٢٢
	٥-أبو علي الهجري، لسان اليمن الهمداني، أبو الحسن المسعودي (ق٣-٤هـ/ق٩-١٠م)	٢٥
	٦-المقدسي، ناصر خسرو، أبو عبيدالله البكري (ق٤-٥هـ/ ق١٠-١١م)	٢٨
	٧-الإدريسي، ابن جبير، ابن ابي الصيف، ياقوت الحموي (ق٥-٧هـ / ق ١١-١٣م)	٣١
	٨-القزويني، الميورقي، ابن المجاور (ق٧هـ/ق١٣م)	٣٥
	٩-أبو الفداء، ابن فضل الله العُمري، ابن بطوطة، الفيروزآبادي(ق٧-٨هـ / ق١٣-١٤م)	٣٨
	١٠-ابن فهد، ابن عراق الكناني، عبدالقادر الفاكهي، محمد البكري (ق٩-١١هـ/ق١٥-١٧م)	٤٢
	١١-العياشي، العجمي، القنوي، الموسوي، (ق١١-١٢هـ/ ق١٧-١٨م)	٤٣
	١٢-بوركهارت، ليون روش، تاميزية (ق١٢-١٣هـ/ق١٨-١٩م)	٤٦
	١٣-شارل ديدييه، أيوب صبري باشا، محمد صادق باشا، القاري (ق١٣-١٤هـ/ق١٩-٢٠م	٥١
	١٤-الحضراوي، داوتي، سنوك، الدهلوي (ق١٣-١٤هـ/ق١٩-٢٠م)..	٥٦
	١٥-ابن كمال، الشريف البركاتي، شكيب أرسلان، من دبوى (ق١٣-١٤هـ/ ق١٩-٢٠م)	٥٩
	١٦-محمد بن بليهد، محمد حسين هيكل، الزركلي، حافظ وهبة (ق١٤هـ/ ق٢٠م)	٦٢
	١٧-فلبي، يوسف ياسين، فؤاد حمزة (ق١٤هـ/ق٢٠م)	٦٦
	١٨-تويتشل، ايجبرونا كانو الياباني، محمد عمر رفيع (ق١٤هـ/٢٠م)	٧٣
	١٩-فؤاد شاكر، محمد رفعت المحامي، ولفرد ثسيجر، ليبنز (ق١٤هـ /ق٢٠م)	٧٧
	٢٠-حمد الجاسر، محمود شاكر،عاتق البلادي،عبدالرحمن الشريف (ق ١٤-١٥هـ/ق٢٠-٢١م)	٨٤

م	الموضوع	الصفحة
ثالثاً	وقفة قراءة ومقارنة للمؤرخين والرحالين ومدوناتهم	٩٠
	١-تنوع ثقافة المؤرخين والجغرافيين والرحالين	٩٠
	٢-المصادر والمنهج المستخدم في جمع المادة	٩٢
	٣-كلمة عن المادة العلمية وأهميتها	٩٤
رابعاً	آراء وتوصيات	٩٥

أولاً: تمهيد:

الطائف مدينة حجازية قديمة، لها ذكر في كتب التراث الإسلامي، ولها تاريخ سياسي وحضاري عبر أطوار التاريخ[١]. وتأتي الطائف في المرتبة الثالثة أو الرابعة بعد مدن الحجاز الرئيسية (مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وجدة)[٢]. وحاضرة الطائف تقع في أقصى الجهة الشمالية من بلاد السرو، وهي حلقة الوصل بين مكة المكرمة وبلاد السراة الممتدة من قعر الطائف إلى صعدة وصنعاء في بلاد اليمن[٣]. ولسنا في هذا القسم معنيين برصد تاريخها السياسي والحضاري خلال العصور القديمة والإسلامية، فهذا ميدان يدرس في عشرات الكتب والبحوث، لكننا قصرنا الحديث على ذكرها عند بعض المؤرخين والجغرافيين والرحالين، الذين كتبوا عنها، أو زاروها، أو عاشوا فيها منذ القرن الثاني إلى الخامس عشر الهجريين (ق٨-٢١م)، ولا ندعي في

---

(١) عشرات المصادر التاريخية، واللغوية، والأدبية، والجغرافية، والتراجم وبعض كتب الأنساب، وعدد من كتب الفقه والسنة والتفاسير وغيرها أشارت إلى صور من تاريخ وحضارة بلاد الطائف. وفي وقتنا الحاضر كثرت الجامعات والأقسام والمراكز العلمية والبحثية، وعليها مسئوليات دراسة حواضر الجزيرة العربية، وحاضرة الطائف من البلدان الجديرة بالدراسة العلمية الموثقة. للمزيد انظر: محمد سعيد حسن آل كمال. الطائف (جغرافيتها، تاريخها، أنساب قبائلها). جمع وتعليق سليمان بن صالح آل كمال (الطائف: مكتبة المعارف، ١٤١٧هـ) (٢٠٩ صفحة)، مناحي ضاوي القثامي. تاريخ الطائف قديماً وحديثاً (الطائف: مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ١٤٠٧هـ) (الطبعة الثانية) (١٩٢ صفحة)، عبدالجبار منسي العبيدي. الطائف ودور قبيلة ثقيف من العصر الجاهلي الأخير حتى قيام الدولة الأموية (الرياض: دار الرفاعي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) (٢٦٤ صفحة)، ناصر بن علي الحارثي. النقوش العربية المبكرة في محافظة الطائف (الطائف: دار الحارثي، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م) (الطبعة الثانية) (موسوعة الآثار الإسلامية في محافظة الطائف/٢) (٢٨٢ صفحة)، محمد أحمد العقيلي. سوق عكاظ (أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م (٢١٦ صفحة).

(٢) كانت الطائف في المرتبة الثالثة قبل جدة، وبخاصة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة، وأيضاً في عصر ما قبل الإسلام.

(٣) الدارس لكتب التراث الاسلامي يجد صلات تاريخية وحضارية بين الطائف ومكة المكرمة وبينها وبين بلاد السرو في مناطق السياحة وعسير ونجران وحواضر اليمن الكبرى. وهذا الموضوع لم يدرس في هيئة كتب ورسائل علمية، ويجب على جامعات الطائف، وأم القرى، والباحة، والملك خالد أن تدرس هذا الباب المهم الجدير بالدراسة والتوثيق.

هـذا المبحث أننا أتينا على جميـع المؤرخين والرحالة الذين ذكروا مدينة الطائف، ولذا أوردنا في العنوان كلمة (بعض) حتى نتجنب النقد، أو المغالطات التاريخية[١]. وهناك بعض الأسـباب التي جعلتنا ننشر دراسة بهذا العنوان: الطائف في عيون بعض المؤرخين والرحالين المتقدمين والمتأخرين، المسلمين وغير المسلمين. ومنها:

١. سبق أن درسنا ونشرنا دراسات مماثلة في سلسلة كتاب: القول المكتوب في تاريخ الجنـوب، وغـيره عن بلـدان ومناطق عديـدة في تهامة والسـراة[٢]. وكون بلاد الطائف جزءاً من أرض السروات فقد عزمنا على ذكر أهمية هذه الناحية عند المؤرخين والجغرافيين المسلمين وغير المسلمين عبر أطوار التاريخ الإسلامي.

٢. محاولـة إطـلاع القارئ والباحث الكريمـين على أهمية الطائف عند شـريحة مـن العلماء، وهـم المؤرخـون والجغرافيون، ولذا فقـد أوردنـا (٦٧) مؤرخاً، وجغرافيـاً، ورحالـة، ذكـروا الطائف، منهم الـذي كتب عنها نقـلاً من بعض الرواة أو المصـادر التراثية، ومنهم من زارها وشـاهد معالمها ودون شـيئاً من تاريخها السياسـي والحضاري، ومنهم أيضاً من جاء إليها واستوطنها سنوات عديـدة، وبعضـهم مات فيها، وألف كتبـاً وبحوثاً عنها وعن فضـائلها وما قيل عنها في بعض كتب التراث الإسلامي[٣].

٣. يجب أن نعلم أهمية مكة المكرمة لحاضرة الطائف، فالمكيون من قديم الزمان كانوا وما زالوا على صـلة قوية بالطائـف وأهلها، وهذا الأمر أثر على كثير من المؤرخـين والرحالين الذين كتبـوا عن الطائف، حيث كانوا يـزورون أولاً المدن المقدسة (مكة والمدنية)، وبالتالي يسمعون عن بلاد الطائف في أرض السراة،

---

(١) كون مدينة الطائف مصيف أهل مكة وجدة، ثم وقوعها في مكان يربط مكة مع السروات ومع وسط شبه الجزيرة العربية وشرقها، فلا بد أنها كانت وما زالت مرتادة بالكثير من شرائح المجتمع الداخلي والعالم الخارجي، ومما لا شك فيه أنه زارها وشاهد معالمها الكثير من العلماء والمؤرخين والجغرافيين والصحفيين وأرباب القلم، وفيهم من دون شيئاً من تاريخها وتراثها، لكننا لم نستطع الاطلاع عليه، ربما لضياعه، أو وجوده في بعض الأمكنة التي لا نعرفها، ولهذا أوردنا مفردة (بعض) في عنوان القسم الرئيسي.

(٢) للمزيـد انظر، سلسـلة: كتاب القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٣، صـ٣٢١-٣٩٤. جـ٤، ص ٢٣-٨٦، جـ٥، ص ٢١-٩١. جـ٩، ص ١٣١-١٩٤. المؤلف نفسـه. بلاد القنفذة خلال خمسـة قـرون (ق١٠-ق١٥هـ/ق١٦-ق٢١م) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م)، ص ١٦١-٢٢٩.

(٣) وأقـول إن بعضـ هؤلاء المؤرخـين والرحالين المذكورين في هذا القسـم، الذين كتبوا صـوراً مـن تاريخ الطائف وحضـارتها يسـتحقون أن يفرد لهم دراسـات مسـتقلة مع التركيز على ما دونوه وحفظوه لنا عن مدن الحجاز الرئيسـية مثـل الطائـف ومكـة والمدنية المنـورة. ونأمل أن نـرى بعض طالباتنـا وطلابنا في أقسـام التاريخ في الجامعات السـعودية، في برامج الدراسـات العليا، يدرسون مثل هذه الموضـوعات التي تستحق أن تكون عناوين لرسائل ماجستير أو دكتوراه.

ومنهم من يسأل عنها ويبحث عن ذكرها في المصادر، ومنهم من يذهب إلى الطائف ويتجول في أرجائها ثم يكتب صفحات من تاريخها[١].

٤. لا ندعي الكمال في كل ما جمعناه ووثقناه في هذا السفر، لكننا واثقون من جمع ودراسة معلومات متنوعة عند كثير من المؤرخين والرحالين والجغرافيين، وهذا مما قد يبث في نفوس بعض الباحثين الجادين العزم والإصرار فيستكملون ما قصرنا في دراسته، أو نقد ما وقعنا فيه من تجاوزات وأخطاء غير مقصودة، أو دراسة وتحليل ومقارنة موضوعات وجوانب تصب في خدمة البحث في تاريخ وحضارة حاضرة الطائف.

٥. نأمل أن نرى من الباحثين والمؤرخين في محافظة الطائف أو جامعتها، أو مدن الحجاز الأخرى من يدرس تاريخ وتراث وحضارة هذا المدينة التاريخية عبر أطوار التاريخ. وأقول إن حاضرة الطائف ما زالت بحاجة كبيرة إلى دراسة أرضها وسكانها وتراثها وحضارتها، وهذا ما نتطلع إليه من بناتنا وأبنائنا الباحثين المدققين الجادين.

ثانياً: التعريف بالمؤرخين والرحالين ومدوناتهم:

١- عرام بن الأصبغ السلمي (ق٢-٣هـ/ق٨-٩م):

لا نجد معلومات دقيقة عن مولده وحياته، وإنما عرف في بعض كتب التراث الإسلامي باسم (عرام بن الأصبغ السلمي)، والسلمي نسبة إلى قبيلة بني سليم، ويذكر أنه دخل خراسان مع أحد أمراء بني طاهر عام (٢١٧هـ/٨٣٢م)[٢].

وكتاب عرام الوحيد الذي وصلنا هو: أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه[٣]. وهذا الكتاب صغير في حجمه وعدد صفحاته، لكنه يحتوي على معلومات قيمة عن بلاد الحجاز وتهامة والسراة.

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر صفحات قادمة في هذا القسم وسوف تجد المنهج الذي اتبعه كل مؤرخ أو جغرافي أو رحالة في الكتابة عن الطائف.

(٢) انظر مقدمة كتاب: أسماء جبال تهامة وسكانها... تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م)، ص ٣٧٦، ٣٧٨. انظر أيضاً غيثان بن جريس. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير، نجران، جازان، رنية، تربة، الخرمة) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م)، (الجزء التاسع)، ص١٣٧.

(٣) هذا الكتاب برواية السيرافي الذي أسنده إلى عرام بن الأصبغ السلمي، وقد قام الأستاذ عبدالسلام هارون بتحقيقه ونشره عام (١٣٧٤هـ/١٩٥٥م)، في سلسلة (نوادر المخطوطات، مطبعة مصطفى الحلبي بالقاهرة).

وكون مدينة الطائف تقع في أرض السروات وقريبة من حاضرة الحجاز (مكة المكرمة)، فقد أشار عرام إلى تعدد النباتات وأشجار الفواكه في سروات الطائف وما جاورها من بلاد السراة[١]. ويقول: "بين مكة والطائف قرية يقال لها راسب لخثعم، والجونه: قرية للأنصار والمعدن (معدن البرم)، وهي كثيرة النخل والزروع، والمياه مياه آبار يسقون زروعهم بالزرانيق"[٢]. ويتحدث عن الطائف، فيقول: "... الطائف ذات مزارع ونخيل وموز وأعناب وسائر الفواكه، وبها مياه جارية، وأودية تنصب من تبالة. وجل أهل الطائف ثقيف وحمير وقوم من قريش، وغوث من اليمن، وهي من أمهات القرى. ومطار: قرية من قراها كثيرة الزرع والموز... وبالطائف منبر..."[٣].

٢- أبو القاسم عبدالله أو (عبيدالله) بن خرداذبة (ق٣هـ/ق٩م):

ابن خرداذبة من مواليد خراسان سنة (٢٠٥هـ/٨٢٠م)، وقيل سنة (٢١١هـ/٨٢٦م)، وتوفي عام (٢٧٢هـ / ٨٨٥م)، وقيل سنة (٣٠٠هـ/٩١٢م)، تولى إدارة البريد في بعض مدن فارس والعراق في عصر الخليفة العباسي المعتمد على الله (٢٥٠-٢٥٥هـ/٨٦٤-٨٦٨م). وهو من أوائل الجغرافيين المسلمين، وله مؤلفات عديدة بعضها لم يصلنا، أما البعض الآخر فيمكن التعرف عليه من خلال اقتباسات المسعودي، وأشهر كتبه: المسالك والممالك[٤]، الذي اعتنى بتحقيقه المستشرق الهولندي دي غوي، ونشره سنة (١٨٨٩م).

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤١٧-٤١٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤١٩-٤٢٠. عندما نبحث عن هذه المواضع التي ذكرها عرام لا نجد لها ذكراً عند أهل الطائف وبخاصة بلاد راسب والجونة، وربما تكون الجونه هي الحوية المعروفة اليوم. أما معدن البرم فما زال معروفاً باسم المعدن حتى اليوم، ويقع في بلاد عدوان من محافظة الطائف، وهو واد فيه قرى وسكان. المصدر: مشاهدات الباحث عام (١٤٣٧هـ/٢٠١٦م).

(٣) عرام السلمي، أسماء جبال تهامة، ص ٤٢٠-٤٢١. ويبدو أن عرام يذكر هذه التفصيلات عن الطائف نقلاً من بعض الرواة أو بعض المصادر، فهو إن كان جغرافياً ورحالة فأنه لا يدون معلوماته من مشاهداته للطائف، ومعظم حياته قضاها في بلاد العراق وفارس. أما قوله إن في الطائف أودية تنصب من تبالة، فهذا قول غير صحيح، لأن تبالة في أرض السروات وتبعد عن الطائف عشرات الكيلومترات، ومياه تبالة تصب في وادي بيشة. مشاهدات الباحث وزياراته لتبالة وبيشة وأجزاء من السروات. انظر أيضاً: القول المكتوب في تاريخ الجنوب. (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م)، ج١١، ص ٣٤٠ وما بعدها.

(٤) هذا الكتاب من مطبوعات بريل في مدينة ليدن في هولندا عام (١٣٠٦هـ/١٨٨٩م)، وللمزيد عن ابن خرداذبة وكتابه: المسالك والممالك، انظر غيثان بن جريس. القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج٩، ص ١٣٨-١٣٩، أحمد رمضان أحمد. الرحلة والرحالة المسلمون (جدة: دار البيان العربي، د.ت)، ص ٥٥-٦٢.

تحدث ابن خرداذبة في كتابه (المسالك) عن بلدان عديدة في العالم الإسلامي آنذاك، والهدف من هذا الكتاب هو التعريف بالطرقات الواصلة بين بغداد والمدن الإسلامية الأخرى، وكذلك المسالك بين جميع هذه المدن. وقد فصل الحديث في محطات الطرق التي تصل إلى أرض الحرمين من داخل الجزيرة العربية[١]. وعدد مخاليف مكة وذكر منها الطائف، وقرن المنازل، وعكاظ[٢]. وأشار إلى الطريق من مكة إلى الطائف فقال: "من مكة إلى بئر ابن المرتفع، ثم إلى قرن المنازل، وهي ميقات أهل اليمن والطائف، ثم إلى الطائف. ومن أراد من مكة إلى الطائف على طريق العقبة يأتي عرفات، ثم بطن نعمان، ثم يصعد إلى عقبة حراء[٣]، ثم يشرف على الطائف، ويهبط ويصعد عقبة خفيفة، ثم يدخل الطائف"[٤]. وفي الطريق من مكة إلى اليمن يدون بعض المحطات التي تقع ضمن حاضرة الطائف، ويذكر شيئاً من أوصافها الطبيعية أو الحضارية مثل: بئر ابن المرتفع، وقرن المنازل قرية عظيمة، ثم الفتق قرية كبيرة[٥]. ونجد معلومات ابن خرداذبة صحيحة ودقيقة، لكنه لا يسهب في التفصيلات، ويبدو أنه قد زار الحجاز وبخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة[٦]، لكن لا نجد أي إشارة تؤكد زيارته للطائف، وربما حصل على معلوماته التي ذكرها من سجلات البريد التي كان يتولى بعض إداراته في العراق وفارس.

٢-أبو إسحاق الحربي، وأبو الفرج قدامة بن جعفر، واليعقوبي (ق٣-ق٤هـ/ق٨-ق١٠م)

هؤلاء العلماء الثلاثة عاشوا في الزمن الممتد من القرن الثاني إلى الرابع الهجري. فالإمام إبراهيم بن إسحاق الحربي ولد في مدينة مرو بخراسان عام (١٩٨هـ/٨١٣م). وبرع في علوم شرعية ولغوية وأدبية وجغرافية وتاريخية. ومن أفضل كتبه في علم الجغرافيا والرحلات، كتاب المناسك وأماكن الحج ومعالم الجزيرة[٧]. أما أبو الفرج قدامة بن جعفر فنشأ في العراق، وكان أبوه نصرانياً، والتحق بمعاهد العلم في بغداد،

(١) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٣٢ وما بعدها.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٣.
(٣) ذكر كلمة (حراء) والصحيح هو (الهدا) وما زالت معروفة بهذا الاسم حتى اليوم.
(٤) ابن خرداذبة، المسالك، ص ١٣٤.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٣٤.
(٦) لم أجد أي مصدر يذكر ذلك، لكنه كان موظفاً في الدولة العباسية، ويشغل إدارات مهمة، هي البريد في بعض مدن العراق وما حولها، ومن المؤكد أن مثله يستطيع الذهاب إلى الحرمين لأداء مناسك الحج والعمرة.
(٧) قام حمد الجاسر بدراسة وتحقيق هذا الكتاب، وكتب له مقدمة طويلة تقع في (٢٧٢) صفحة ونشره عام (١٤٠١هـ / ١٩٨١م).

وأثبت نبوغه وتفوقه على أقرانه[١]، فُرشح لتولي بعض الوظائف الإدارية والمالية، وهو ما يزال صغير السن، وبعد اعتناقه للإسلام عين سنة (٢٩٧هـ/٩٠٩م) على رأس ديوان الخراج، واحتفظ بهذه الوظيفة حتى نهاية عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله عام (٣٢٥هـ/٩٣٧م). واقتضت وظيفته في ديوان الخراج أن يرتحل إلى معظم أقاليم الدولة العباسية، وحصل على خبرة عملية كبيرة جعلته عالماً بالطرقات، والبلدان، وأحوال الناس وتاريخهم، وهذا ما جعله يدون عدداً من المؤلفات التي ضاع معظمها، ولم يصلنا إلاّ بعض نبذ من كتاب (صنعة الكتابة)، وهي الأقسام الأربعة الأخيرة التي أطلق عليها اسم كتاب (الخراج)[٢].

أما اليعقوبي، فهو أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، كان جده من موالي الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، ولا نعرف سنة ميلاده[٣]، وهو مؤرخ، ورحالة وجغرافي، قام برحلات في إيران والهند ومصر وبلاد المغرب، وألف كتب في التاريخ والجغرافيا، ومنها (كتاب البلدان)[٤]، وهو من أفضل الكتب التي صنفت في موضوعه، ذكر فيه الأسفار التي قام بها والوظائف التي تقلدها في عصر الدولة الطاهرية بخراسان، والدولة الطولونية بمصر والشام[٥].

وكتاب أبي إسحاق الحربي يقع مع مقدماته وفهارسه في أكثر من ثمان مئة صفحة. ومادة الكتاب الأساسية تقع في حوالي (٣٨٠) صفحة تحدث عن بعض الصور التاريخية والحضارية في المدينتين المقدستين (مكة والمدينة)، ثم فصل الحديث عن محطات الطرق التي تربط الحجاز مع غيرها من بلدان العالم الإسلامي مثل: "العراق، والشام، ومصر، واليمن. وأثناء حديثه عن طريق اليمن الجبلي إلى مكة ذكر المحطات التي تقع ضمن حاضرة الطائف، مثل: قرن المنازل، وهو محل الإحرام، وشرب وهو أيضاً من أودية الطائف[٦]. وفي مكان آخر ذكر الطرق التي تربط بين مكة والطائف،

---

(١) للمزيد عن أبي الفرج قدامة انظر أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٦٣-٧٠. لا نعرف تاريخ ميلاد أبي الفرج قدامة بن جعفر، أما وفاته فكانت عام (٣١٠هـ/٩٢٢م)، وقيل سنة (٣٢٠هـ/٩٣٢م).

(٢) كتاب الخراج لقدامة لا يختلف كثيراً في أسلوبه ومنهجه عن كتاب (المسالك والممالك) لابن خرداذبة، وقد اعتنى بدراسته وتحقيقه دي غوي سنة (١٨٨٩م)، ونشر في نهاية كتاب ابن خرداذبة السابق ذكره.

(٣) أما وفاته فكانت في عام (٢٨٤هـ/٨٩٧م).

(٤) هذا الكتاب من مطبوعات بريل في ليدن (١٨٩١م)، ودراسة وتحقيق دي غوى، وهو ملحق بكتاب أحمد بن عمر بن رسته (الأعلاق النفيسة).

(٥) كما وصلنا كتاب تاريخي لهذا الرحالة عرف باسم (تاريخ اليعقوبي) ويقع في جزئين، الأول في التاريخ القديم، والثاني في التاريخ الإسلامي حتى عام (٢٥٩هـ/٨٧٢م). واشتهر اليعقوبي بميوله للعلويين وانتقاد معارضيهم مثل الأمويين وغيرهم. ويوجد في مؤلفاته مادة علمية قد لا نجدها عند غيره.

(٦) الحربي، كتاب المناسك، ص ٦٤٥. ويقع وادي شرب شمال الطائف ويصب في وداي الأخيضر، وفيه قرى بعضها لقبيلة عدوان. مشاهدات الباحث وجولاته في الطائف في عام (١٤٣٨هـ/٢٠١٧م).

ويشير إلى الطريق التي ذكرها ابن خرداذبة من عرفة إلى الهدا[١] ثم الطائف[٢]. ويذكر طريق أخرى تخرج من مكة إلى الزيمة ثم إلى الطائف، ويستغرق المسافر في هذه الطريق ثلاثة أيام، والطريق الأخرى يومين[٣]. ويشير إلى معدن البرام الذي ذكره عرام السلمي فيقول: "... تخرج من الطائف إلى موضع يقال له معدن البرام، وهي مدينة كبيرة، بها منبر، وهو الموضع الذي تعمل فيه البرام، تنحت من جبل عظيم"[٤].

ويذكر أبو الفرج قدامة السكك التي تصل إلى الطائف من اليمن ثم تسير حتى مكة، ويوجز حديثه عن المحطات التي تقع ضمن محافظة الطائف فلا يذكر إلا محطة الفتق من شرق الطائف، ولا نجد لها ذكرا اليوم، ويذكر أنها اندثرت[٥]. ويشير أيضا إلى طرق الطائف مكة التي اشار إليها ابن خرداذبة وأبو سحاق الحربي، ويذكر عدد المراحل بين مكة وقرن المنازل، ومحطة وادي نعمان الواقعة على طريق الهدا، ويسميه نعمان السحاب لأن السحاب يطل على وادي نعمان من أعالي عقبة الهدا، وبعد أن يصل المسافر إلى رأس العقبة ينحدر ويصعد "عقبة خفيفة تسمى تنعيم الطائف"[٦]. ولا يذكر شيئاً عن مدينة الطائف، لكنه يشير إلى بعض المحطات القريبة من حاضرة الطائف في الجهات الشرقية والجنوبية، مثل الفتق ثم تربة، ويقول عن الأخيرة، إنها قرية عظيمة بها عيون جارية وزروع[٧].

ويورد اليعقوبي معلومات مختصرة وقيمة عن بعض البلدات والقرى والمحطات الواقعة بين حواضر اليمن والحجاز الكبرى، ويذكر الطائف في عبارات محدودة، فيقول: "والطائف من مكة على مرحلتين، والطائف منازل ثقيف، وهي من أعمال مكة، مضمومة إلى أعمال مكة"[٨]. ومع محدودية هذه الأقوال، فإنها توضح أن الطائف تتبع إداريا لوالي مكة، وكنت آمل أن يكون هذا الرحالة فصّل في هذه النقطة، وذكر شيئاً من التاريخ الحضاري والإداري لهذه الحاضرة الحجازية[٩].

---

(١) الحربي دون كلمة الهدا بهذه الصورة (الهدة)، ويقصد بها عقبة الهدا. انظر كتاب المناسك. ص ٦٥٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ٦٥٣. انظر ابن خرداذبه، المسالك، ص ١٣٤.
(٣) المصدر نفسه، ص ٦٥٤.
(٤) الحربي، كتاب المناسك، ص ٦٥٤، انظر أيضاً عرام السلمي، أسماء جبال تهامة، ص ٤١٩-٤٢٠.
(٥) انظر أبو الفرج قدامة، كتاب الخراج، تحقيق دي غول، الملحق بكتاب المسالك لابن خرداذبة، ص ١٩٢.
(٦) المصدر نفسه، ص ١٨٨.
(٧) المصدر نفسه، ص ١٨٨.
(٨) اليعقوبي، البلدان، تحقيق دي غوى، وملحق مع كتاب الاعلاق النفيسة لابن رسته، ص ٣١٦.
(٩) الباحث في كتب التراث الإسلامي المبكرة يجد أن مكة حظيت بالنصيب الأوفر من التفصيلات عن تاريخها وحضارتها، وإذا ذكرت المدن والبلدان القريبة منها مثل الطائف وجدة وغيرهما فلا نجد إلاّ شذرات قليلة لا تعطي صورة واضحة عن هذه المدن.

٤- ابن الفقيه الهمذاني، وابن رسته، والاصطخري، وابن حوقل (ق٣-٤هـ/ ق٩-١٠م):

ابن الفقيه الهمذاني من رحالة وجغرافي القرن (٣هـ/٩م)، الذين ارتحلوا وكتبوا عن بلدان العالم الإسلامي وبخاصة أجزاء من بلاد العرب والحجاز، وقد وصلنا من مؤلفاته (مختصر كتاب البلدان) الذي ألفه سنة (٢٧٩هـ/٨٩٢م)، ونشره المستشرق دي غوى بمطبعة بريل في ليدن. وهذا الكتاب يشتمل على تفصيلات تاريخية وحضارية عن بلدان عديدة في الصين والهند وبعض بلاد العرب والمسلمين[١]. أما ابن رسته فهو أبو علي أحمد بن عمر، وهو من أعظم الجغرافيين والرحالة في القرن (٣هـ/٩م) الذين استفادوا من الثقافة اليونانية والرومانية بعد ترجمتها ألف هذا الرحالة كتابه (الأعلاق النفيسة) حوالي سنة (٢٩٩هـ/٩٠٣م)، وطبع في المكتبة الجغرافية في ليدن مع كتاب (البلدان) لليعقوبي عام (٩١-١٨٩٢م) [٢].

درس ابن رسته في القسم الأول من كتابه عجائب السموات والأرض، ووصف أقاليمها، كما تحدث عن النواحي الفلكية، وخص بلاد أصفهان، مسقط رأسه، بجزء كبير من كتابه، فذكر صفحات من تاريخها، كما أشار إلى نواحي عديدة في الجزيرة العربية وبخاصة أرض اليمن والحجاز[٣]. أما الاصطخري، فهو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المعروف بالكرخي، فلا نعرف عن ترجمته إلاّ القليل، ويبدو أنه ولد بإصطخر، في بلاد الشرق الإسلامي، وتحول إلى دار السلام، بغداد، وتوفي سنة (٣٤٠هـ/٩٥١م)، وكتابه الذي وصلنا سماه (مسالك الممالك)، وقد نشر في مطبعة بريل في ليدن عام (١٨٧٠م)، وطبع مرة ثانية في ليدن سنة (١٩٢٧م)، كما أعيد نشر الكتاب سنة (١٩٦١م) بتحقيق محمد جابر عبدالعال، بوزارة الثقافة والإرشاد بالقاهرة[٤]. وذكر الاصطخري في مقدمة كتابه أسلوبه ومنهجه، وأشار إلى أنه ركز على مدن وبلدان الإسلام، وقسم البلاد الإسلامية إلى عشرين اقليماً، وجعل مكة واسطة العقد في هذه الأقاليم. والجميل في هذا الكتاب أنه قارن المدن بعضها ببعض، وترك تحديد المسافات، كما فعل بعض الرحالة والجغرافيين الأوائل، وذلك رغبة منه في الاختصار وإعطاء فكرة واضحة ومبسطة، فمثلاً يقول: "وليس بالحجاز بعد مكة والمدينة أكبر

---

(١) أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه. مختصر كتاب البلدان (ليدن: بريل، ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م).

(٢) انظر: أبو علي أحمد بن عمر بن رسته. المجلد السابع من كتاب الاعلاق النفيسة (ليدن: بريل، ١٨٩١م).

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣ وما بعدها.

(٤) والطبعة التي اطلعنا عليها، هي طبعة بريل في ليدن عام (١٨٧٠م) وهي بتحقيق دي غوي.

من اليمامة، ويليها في الكبر وادي القرى، والجار ميناء المدينة، بيد أن جدة ميناء مكة، وليس بعد مكة أكثر مالاً وتجارة من جدة، وقوام تجارتها بالفرس"[١].

أما ابن حوقل، فهو أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبي، ولد في نصيبين بالجزيرة الفراتية، ولا نعرف تاريخ مولده، إلا أنه عزم على السفر والترحال سنة (٣٣١هـ/٩٤٣م)، وبقي حوالي ثلاثين عاماً يجوب بلداناً عديدة في العالم الإسلامي. وقد لقي ابن حوقل الاصطخري سنة (٣٤٠هـ/٩٥٢م)، وكان الاصطخري قد عمل خارطة رديئة لبلاد السند، وخارطة أخرى جيدة لفارس، فأطلعه ابن حوقل على خارطتين من عمله، إحداهما لأذربيجان، والأخرى للجزيرة فأعجب بهما الاصطخري، وطلب من ابن حوقل أن يعيد النظر في كتابه وينقحه ففعل ابن حوقل ذلك. وعندما الف ابن حوقل كتابه (المسالك والممالك) أو (صورة الأرض)[٢]، فقد احتذى حذو الاصطخري، لكن خرائط ابن حوقل أدق وأشمل[٣]. تأثر ابن حوقل بالاصطخري واقتبس منه أشياء كثيرة وأضاف تفصيلات جديدة، وكان أسلوبه سهلاً واضحاً فلا سجع ولا محسنات بديعية فيه، وله اهتمام بالغ بالتجارة والجبايات، وإعجاب بالدولة الفاطمية وحكامها.

والرحالون الأربعة (ابن الفقيه، وابن رسته، والاصطخري، وابن حوقل) ذكروا بلاد الحجاز وبخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة، وفصلوا الحديث عن الحرمين في هاتين المدينتين، وذكروا صوراً من تاريخ أهل هاتين المدينتين المقدستين، ثم أشاروا إلى نبذ من تاريخ الطائف. فابن الفقيه يذكر أن طول الحجاز من العرج إلى السراة إلى الطائف[٤]. ويضيف هذا الرحالة معلومات عن سراة الطائف فيذكر أن السروات ثلاث، أدناها بالطائف وأقصاها قرب صنعاء، ويقول: "والسروات أرض عالية، وجبال مشرقة على البحر من المغرب، وعلى نجد من المشرق. والطائف من سراة بني ثقيف وهو أدنى السروات إلى مكة، ومعدن البرام، هي السراة الثانية، بلاد عدوان في برية العرب، وبها معدن البلور، وهو أجود ما يكون..."[٥]. وفي عنوان جانبي يذكر ابن الفقيه (مدينة

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٨ وما بعدها.

(٢) هذا الكتاب طبع مع كتاب الاصطخري في جزئين في مطابع بريل في ليدن من عام (١٨٧٠-١٨٧٣م) وعني بتحقيقهما دي غوى، ثم أعيدت طباعة كتاب ابن حوقل عام (١٩٣٨م)، وهي النسخة التي اعتمدنا عليها.

(٣) هناك عدد كبير من الخرائط الخاصة بديار الإسلام، وكان للرحالة والجغرافيين في القرن (٤هـ/١٠م) فضل كبير في إعداد كثير من هذه الخرائط. انظر نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، ص ٣٢.

(٤) ابن الفقيه، البلدان، ص ٢٧. وهناك تفصيلات مطولة عند المتقدمين عن حدود الحجاز والسروات وما يوجد في هذه البلاد من معالم جغرافية.

(٥) ابن الفقيه، البلدان. ص ٣١-٣٢.

الطائف)، ويذكر أنها تسمى وج، وسميت الطائف بسبب السور الذي يحيط بها، ثم يقول: "وكانت الطائف مهرباً وملجأ لكل هارب، وبالطائف وهط عمرو بن العاص، وهو كرم كان يعرش على ألف ألف خشبة، شرى كل خشبة ألف درهم.."[١].

أما ابن رسته فيذكر الطريقين اللتين تفصلان بين مكة المكرمة والطائف، ولم يذهب بعيداً عن وصف ابن خرداذبة، وأبي إسحاق الحربي، وأبي الفرج قدامة[٢]، فأشار إلى بعض محطات الطريق التي تخرج من مكة إلى عرفة ثم إلى عقبة الهدا فالطائف[٣]، والطريق الأخرى التي تخرج من مكة إلى قرن المنازل، وهو ميقات أهل اليمن للاحرام، وتسير منه إلى الطائف[٤]. ويذكر أن الطائف مخلاف من مخاليف مكة، ومن مخاليف مكة في أرض الحجاز والسروات "نجد، نجران، وقرن، والفتق، وعكاظ، والطائف، وتربة، وبيشة، وتبالة، والهجيرة، وكتنه، وجرش، والسراة"[٥].

أما الاصطخري وابن حوقل فهما متشابهان في ما دون عن بلاد ومدن وحواضر جزيرة العرب، وقد فصلا الحديث عن طبيعة الحرمين الشريفين، وذكرا بعض الصور التاريخية الأخرى الخاصة بأهل الحجاز في المدينة المنورة ومكة المكرمة، وبعض البلدان الأخرى في شبه الجزيرة العربية[٦]. ويذكر ابن حوقل اشتهار الطائف بالدباغة وصناعة الأديم، ويشير إلى بلاد تهامة والسراة ويذكر بعض حدودها ومدنها وحواضرها الكبيرة مثل: صنعاء، وصعدة، ونجران، وجرش والطائف[٧]. ويدون لنا هذا الرحالة معلومات قيمة عن الطائف، وقد ذكرها الاصطخري أيضاً، فيقول: "الطائف مدينة صغيرة نحو وادي القرى كثيرة الشجر والثمر، وأكثر ثمارها الزبيب، وهي طيبة الهواء، وفواكه مكة وبقولها منها، وهي على ظهر جبل غزوان، وبغزوان ديار بني سعد، وسائر قبائل هذيل، وليس بالحجاز مكان أبرد من رأس هذا الجبل، ولذاك اعتدل هواء الطائف، وبلغني أنه ربما جمد الماء في ذروة هذا الجبل، وليس بالحجاز مكان يجمد فيه الماء سوى هذا الموضوع"[٨].

---

(١) ابن الفقيه، البلدان، ص ٢٢.

(٢) انظر ابن خرداذبة، المسالك، ص ١٣٤، أبو إسحاق الحربي، كتاب المناسك، ص ٦٥٤، أبو الفرج قدامة، كتاب الخراج، ص١٩٢.

(٣) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، تحقيق دي غوي (١٨٩١م) ص١٨٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٨٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٨٤.

(٦) انظر ابن حوقل، صورة الأرض. (طبعة بريل في ليدن، ١٩٣٨م)، ص ١٨-٤١.

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٦، الاصطخري وابن حوقل وغيرهما من الجغرافيين والرحالين المسلمين الأوائل حفظوا لنا بعض الروايات والأخبار عن بلدان ومدن عديدة في اليمن والسروات وتهامة والحجاز. ونأمل أن نرى باحثين جادين يدرسون ما دون لنا هؤلاء العلماء المسلمون الأوائل.

(٨) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٣.

ومعظم هذه المعلومات حقيقية عن بلاد الطائف، لكنها ليست قريباً من وادي القرى كما ذكر ابن حوقل ومن قبله الاصطخري، وجبل غزوان في الطائف عالي الارتفاع، وفيه برودة شديدة أثناء فصل الشتاء، ويعتدل جوه في الصيف، لكنه ليس أعلى جبل في بلاد السروات الممتدة من الطائف إلى بلاد عسير وقحطان في الجنوب، وإنما هناك جبال أخرى في هذه النواحي أكثر ارتفاعاً وأشد برودة[١].

٥- أبو علي الهجري، ولسان اليمن الهمداني، وأبو الحسن المسعودي (ق٣-ق٤هـ/ ق٩-ق١٠م):

أبو علي هارون بن زكريا الهجري، لا نعلم سنة ميلاده، لكنه من أهل القرنين الثالث والرابع الهجريين، وهو من أهل الجزيرة العربية، ومن بلاد هجر في إقليم البحرين، كان عالماً باللغة والأدب والشعر وعلم الأنساب، وله مؤلفات عديدة، ضاع معظمها، وبعضها ما زال متناثراً في بعض كتب التراث الإسلامية المبكرة[٢]. ومن أهم كتبه، التي لها علاقة ببحثنا، كتاب: التعليقات والنوادر، كان موزعاً في عدد من المصادر والمخطوطات، وقام الأستاذ حمد الجاسر بجمعها وتنسيقها وترتيبها ونشرها في أربعة مجلدات[٣]. وفي هذا السفر تفصيلات قيمة عن تاريخ وحضارة سكان الجزيرة العربية. والمفيد في معلومات هذا الكتاب أنها جديدة، فقد جمعها صاحبها من رواة وشعراء وعلماء عصره داخل الجزيرة العربية[٤].

أما الهمداني، فهو أبو محمد الهمداني من بيت متوسط من بيوت بكيل، تنقل أجداده وابوه في نواحي عديدة من اليمن، وولد أبو محمد الهمداني في صنعاء، ولا نعرف بالدقة سنة ميلاده، لكنها كانت في العقود الأخيرة من القرن (٣هـ/٩م). نشأ هذا العالم اليمني في عصر تقدمت فيه العلوم والثقافة والأدب، وتفنن أهلها في التصنيف والتأليف، فشارك

---

(١) هؤلاء الجغرافيون القدماء حفظوا لنا معلومات قيمة عن بلاد الطائف والسروات لكنها قليلة، ومعظمهم لم يأتوا إلى هذه البلاد وإنما نقلوا رواياتهم من بعض الرواة وبعض المصادر التي وجدوها في عصرهم. وأقول إن بلاد السروات الممتدة من الطائف إلى نجران بحاجة إلى دراسات علمية جغرافية وتاريخية وحضارية وأثرية، ونأمل من الجامعات السعودية الموجودة في هذه النواحي أن تسخر مراكز بحوثها وطلابها وأساتذتها لدراسة أرض وسكان هذه البلاد.

(٢) للمزيد عن ترجمة هذا العالم انظر غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٦، ص ١٤١-١٤٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٤٢.

(٤) نعم هذا المصدر يشتمل على تفصيلات جديدة وقيمه يصعب أن نجد معظمها في مصادر أخرى، ولذا فإن هذا العالم والرحالة أسدى لنا معروفاً كبيراً، وحفظ لنا معلومات تاريخية وأدبية ولغوية وحضارية كادت أن تضيع. للمزيد انظر، ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٩، ص ١٤١-١٤٢، وانظر أيضاً مقدمات حمد الجاسر عن هذا الكتاب وصاحبه في طيات الكتاب نفسه.

الهمداني في جميع معارف عصره من تاريخ وأنساب وجغرافية، ومساحة وفلك ودراسة الكواكب وغيرها، كما ارتحل وسافر إلى بلدان عديدة داخل الجزيرة العربية وخارجها، وجاب بلاد السروات والطائف وأقام في مكة المكرمة مدة طويلة، وتعلم على بعض شيوخها. وله مؤلفات عديدة مثل: الإكليل في عشرة أجزاء، وكتاب الجوهرتين العتيقتين، وكتاب الدامغة، وكتاب صفة جزيرة العرب، وهو المصدر الذي يهمنا في هذه الدراسة[١].

أما أبو الحسن المسعودي فقد ولد في بغداد، ويذكر أن أصله من بلاد المغرب، وفي عام (٣٠٣هـ/٩١٥م) انتقل وهو شاباً إلى بلاد فارس، وتنقل في بلدان عربية وإسلامية وغير إسلامية، ولم يحصر اهتماماته في الجغرافيا وإنما ألف مؤلفات كثيرة وفي علوم عديدة يذكر أنها بلغت الثلاثين مجلداً، ولم يصلنا منها إلاّ كتاب (التنبيه والإشراف) وهو من آخر مصنفاته، وكتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) الذي حقق وترجم إلى الفرنسية لأول مرة بين عامي (١٨٦١، ١٨٧٧م) وصدر في تسعة مجلدات، ثم طبع في البلاد العربية طبعات عديدة، وقد اعتمدنا في بحثنا طبعة دار الأندلس في بيروت، التي دققها ووضع فهارسها يوسف أسعد داغر، ويقع في أربعة أجزاء في مجلدين كبيرين[٢].

ونجد أبا علي الهجري والمسعودي يدونان نتفاً يسيرة عن الطائف، فالأول أشار إلى عشائر عدوان وهلال من عامر ويذكر بعض الأعلام والرواة الذين أخذ عنهم أو دون شيئاً من أشعارهم مثل: محمد بن يعقوب الخارجي، ومرداس بن عبدالرحمن السعدي، والأحزم الهلالي، والأعيمش، والحسن بن عامر الرويبي، وابو الرماح الهلالي[٣]. كما يذكر هذا الرحالة بعض الحروب التي وقعت في ديار بني هلال وما جرى فيها من أحداث، وبعض الأشعار التي ذكرت عنها[٤].

أشار أبو الحسن المسعودي إلى بعض أعلام الطائف في الجاهلية والإسلام مثل: أمية بن أبي الصلت الثقفي الذي ظهر الإسلام في الحجاز وما زال حياً، ولم يدخل فيه، مع

---

(١) انظر أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٩٥-١٠٠، عبدالمجيد الذويب «الجغرافيون العرب ودورهم في التعريف بالجزيرة العربية» بحث منشور في كتاب دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول، الجزء الثاني، الذي صدر ضمن أبحاث الندوة الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية. (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص ٢٨٨. وللمزيد انظر غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٩، ص ١٤٤، ومقدمات المحققين الذين حققوا بعض كتب الهمداني، مثل محمد بن علي الأكوع، ومحب الدين الخطيب.

(٢) انظر هذا الكتاب في طبعته السادسة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م). وللمزيد عن تاريخ وحياة المسعودي المتوفى عام (٣٤٦هـ/٩٥٦م)، انظر عبدالمجيد الذويب "الجغرافيون العرب، ص ٢٨٨، أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة، ص ١٠١-١١٦.

(٣) انظر التعليقات والنوادر لأبي علي هارون الهجري، دراسة وترتيب حمد الجاسر (الرياض، ١٤١٣هـ/١٩١٢م)، القسم الأول، ص ٦٤، ٩٦-٩٧، ١٣٦-١٣٧.

(٤) المصدر نفسه، القسم الثاني، ص ٥٧٤-٥٧٥، والقسم الثالث، ص ١٤١٤-١٤١٥، ١٤٣٠-١٤٣١.

أنه كان يعرف صدق هذا الدين في توحيد العبادة لله، وله بعض الأشعار التي تدل على صلاح هذا الدين، وصدق نبوة الرسول محمد (ﷺ)[١]. كما أشار إلى مرور حملة أبرهة الحبشي من بلاد الطائف عندما خرج من اليمن إلى الحجاز بهدف هدم الكعبة، وأشار إلى بعض سكان الطائف في عصور ما قبل الإسلام[٢]. ويدون هذا المؤرخ وصفاً غير دقيق عن طبيعة الحجاز وأثرها على الصحة فيقول: "أما الحجاز فحاجز بين الشام واليمن والتهائم، هواؤه حرورة، وليله بهور[٣]، ينحف الأجسام ويجفف الأدمغة، ويشجع القلوب، ويبسط الهمم، ويبعث على الإحن، وهو بلد محل قحط جدب ضنك.."[٤].

أما لسان اليمن الهمداني فيكتب معلومات أشمل وأدق عن الطائف وما جاورها من البلدان، ويشير إلى عظم جبل غزوان، ويسرد بعض السروات في الطائف أو القريبة منها، فيقول: "سراة بني شبابة وعدوان وغورهم الليث ومركوب فيلملم، ونجدهم في عدوان مما يصلى مطار، ثم سراة الطائف غورها مكة، ونجدها ديار هوزان من عكاظ.."[٥]. ويفصل الحديث عن حاضرة الطائف، فيقول: "الطائف مدينة قديمة جاهلية، وهي بلد الدباغ، يدبغ بها الأهب الطائفية المعروكة، وتسمى المدينة أيضاً الطائف، والمعنى مدينة الطائف، وساكن الطائف ثقيف، ويسكن شرقي الطائف قوم من ولد عمرو بن العاص، وواد قريب من الطائف، يقال له برد فيه حائطان لزبيدة عظيمان يقال لموضعهما وج، وبشرق الطائف واد يقال له لية يسكنه بنو نصر من هوازن، ومن يماني الطائف واد يقال له جفن لثقيف، وهو بين الطائف وبين معدن البرام، ويسكن معدن البرام قريش وثقيف، ومن قبيلة الطائف أيضاً واد يقال له مشريق لبني أمية من قريش، ووادي جلذان.."[٦]. ومن هذا الوصف الذي يذكر لنا هذه الرحالة عن الطائف في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وما نشاهده في محافظة الطائف اليوم نجد أن معظم الأمكنة والسكان المذكورين عند الهمداني ما زالوا في مواطنهم القديمة حتى وقتنا الحاضر[٧].

---

(١) انظر، مروج الذهب، ومعادن الجوهر للمسعودي، (بيروت: دار الأندلس، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، مج١، جـ١، ص٨٤-٨٥.

(٢) المصدر نفسه، مج١، جـ٢، ص ٥٣، ١٢١.

(٣) ذكر محقق الكتاب أن كلمة (بهور) وردت في بعض النسخ المخطوطة (سهور)، وربما كانت الكلمة الأخيرة أقرب إلى الصحة.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، مج١، جـ٢، ص ٣٥.

(٥) انظر لسان اليمن الحسن الهمداني. صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد علي الأكوع (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص١٢٠، ٢٥٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

(٧) هذا ما عرفه الباحث أثناء تجواله في محافظة الطائف في عام (١٤٣٨هـ/٢٠١٧م). للمزيد انظر رحلتنا الميدانية في هذه البلاد في القسم الثاني من هذا المجلد.

ويصف هذا الجغرافي محطات الطريق الذي يخرج من صنعاء إلى الطائف ومكة، ومن المحطات الواقعة في محيط محافظة الطائف قرن، أو قرن المنازل والمقصود به السيل الكبير، ومن قرن المنازل إلى الزيمة[١]. ويذكر قصيدة طويلة لجماعة البارقي الذي ذكر خروج الأزد من اليمن وتوزعهم في جزيرة العرب، ومنها بلاد السراة الممتدة من اليمن إلى الطائف فقال:

حلت الأزد بعد مأربها الغو ر فأرض الحجاز فالسروات[٢]

وقال أيضاً:

ملكوا الطود من سروم إلى الطا ئف بالبأس منهم والثبات[٣]

ويذكر أرجوزة الحج لأحمد بن عيسى الرداعي، ويشير إلى بعض محطات الطريق الواقعة في محيط الطائف، مثل عكاظ وغيرها، فيقول:

سل الهدى عن قلبك المغتاظ والعيس تطوي الأرض بالمظاظ[٤]

مشفقة من زاجر كظاظ مسهلة للخبت من عكاظ[٥]

طوت فجاج الأرض باندعاظ[٦] بمجمرات[٧] صلب غلاظ[٨]

٦- المقدسي، وناصر خسرو، وأبو عبدالله البكري (من ٤- ٥هـ/ ق١٠- ق١١م):

أبو عبدالله بن أبي بكر المقدسي، المعروف بالبشاري، ولد في بيت المقدس، ولا نعرف سنة ميلاده، لكنه جاب بلدان عديدة في جزيرة العرب، والشام، ومصر، والعراق، والمغرب، وبلاد فارس وكرمان والسند، ولم يزر الأندلس، والبلاد الأوروبية، وبلاد الشرق

(١) فصل الحديث عن بعض المحطات الواقعة ضمن محافظة الطائف، مع ذكر المسافات ودرجات الطول والعرض. للمزيد انظر، صفة جزيرة العرب، ص٣٤٠-٣٤١.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٧٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٧٣.
(٤) المظاظ: المغاشة والمشاقة.
(٥) عكاظ: سوق العرب القديمة وهي في ديار بني هلال وبعض عشائر عتيبة اليوم.
(٦) الاندعاظ: الاندفاع.
(٧) المجمرات: الخف المستدير الصليب الجوانب.
(٨) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٤٣٧.

الأقصى، وبعد هذه الرحلات المتعددة وضع كتابه الموسوم بـ: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، في مدينة شيراز عام (٣٧٥هـ/٩٨٥م)، وكان عمره آنذاك حوالي أربعين سنة. ويقول عن هذا الكتاب أنه أسسه على قواعد محكمة، فأعلى قواعده، ورص بنيانه. وقد اعتنى بدراسته وتحقيقه دي غوي، وطبع في مطبعة بريل في ليدن عام (١٨٧٦م) [١]. وفي حوالي (٤٦) صفحة دون معلومات قيمة عن جزيرة العرب[٢].

أما ناصر خسرو فهو من مواليد مدينة بلخ في شرق العالم الإسلامي عام (٣٩٤هـ/١٠٠٣م)، خدم في بعض الأعمال الإدارية في عهدي الدولتين الغزنوية والسلجوقية، وتبحر في بعض العلوم والثقافات، ثم زار بلداناً عديدة مثل: بلاد فارس، والعراق، والشام، وذهب إلى الحجاز للحج مرات عديدة، ودون مشاهداته في كتابه المعروف بـ: سفر نامه رحلة ناصر خسرو القبادياني. وهذا الكتاب من القطع الصغير، ويقع في (٢٠٦) صفحة[٣].

أما البكري، فهو أبو عبيدالله عبدالعزيز بن ابي زيد البكري من أهل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، ولا نعرف سنة ميلاده، إلاّ أنه ولد وعاش بدايات حياته في الأندلس، وهو من نسل أسرة من الأمراء حكمت في بعض مدن الأندلس في عصر بني عباد، ملوك أشبيلية. اهتم بالعلم والثقافة منذ وقت مبكر، وتفوق في علوم لغوية وأدبية وتاريخية وجغرافية عديدة، وله مؤلفات عديدة، من أهمها كتابه الجغرافي الموسوعي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع[٤]، وهذا المصدر الذي يعنينا في هذه الدراسة[٥].

ونجد المقدسي يورد تفصيلات جيدة عن مدن وحواضر في الجزيرة العربية، ويعدد أهم مدن الحجاز ويذكر الطائف واحدة من تلك الحواضر[٦]. ويذكر السروات

---

(١) انظر الصفحات الأولى من الكتاب، ص ٢-٦٦.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٦٧-١١٣. للمزيد انظر غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٩، ص١٤٩-١٥٠.

(٣) هذا المصدر كُتب باللغة الفارسية وترجمه إلى اللغة العربية الدكتور/ أحمد خالد البدلي، وطبع في مطابع جامعة الملك سعود عام (١٤٠٣هـ/١٩٨٣).

(٤) هذا الكتاب يقع في أربعة أجزاء في مجلدين كبيرين، وقام بدراسته وتحقيقه مصطفى السقا، وطبع في عالم الكتب في بيروت، وقد اعتمدنا على الطبعة الثالثة التي صدرت عام (١٤٠٣هـ /١٩٨٣م).

(٥) أول طبعة صدرت من هذا الكتاب كانت في باريس عام (١٨٧٢م)، وقام بدراسته وتحقيقه المستشرق وستنفلد، ثم طبعه مصطفى السقاء الطبعة الأولى في القاهرة، وكان ذلك بين عامي (١٩٤٥، ١٩٥١م)، وصدر وقتها في أربعة أجزاء.

(٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٦٩.

الممتدة من صنعاء إلى الطائف فيثني على طبيعتها الجغرافية، وجودة هوائها، وغنى أرضها بالزروع والثروات الاقتصادية، وهو لم يزرها، لكنه يدون ما سمع عنها، فيقول: "والسروات معدن الحبوب والخيرات، والتمور الرديئة والعسل الكثير، ولا أدري هي مدن أم قرى لأني ما دخلتها"[١]. وكثير من المؤرخين والجغرافيين والعلماء الأوائل لم يزوروا بلاد السراة وهذا مما جعل ذكرها في كتب التراث الإسلامي محدوداً، وأحياناً نادراً، وهذه المشكلة استمرت حتى القرن (١٣هـ/١٩م)، فلا نجد لها تاريخ واضحاً يذكر حياة أهلها السياسية والحضارية[٢].

ويحفظ لنا المقدسي بعض المعلومات المختصرة عن الطائف، فيقول إنها: "مدينة صغيرة شامية الهواء، باردة الماء، أكثر فواكه مكة منها، موضع الرمان الكثير والزبيب والعنب الجيد، والفواكه الحسنة، وهي على ظهر جبل غزوان، ربما يجلد بها الماء، عامتها مدابغ، إذا تأذى ملوك مكة بالحر خرجوا إليها"[٣]. وينقل قولاً لابن عباس في قوله: رحلة الشتاء والصيف، قال كان المكيين يشتون في مكة ويصيفون بالطائف[٤]. كما تحدث هذا الرحالة بنوع من الإسهاب عن بعض الصور الاجتماعية والاقتصادية والتجارات في الحجاز وبخاصة مكة المكرمة، ولم يحدد الطائف بشكل دقيق، إلا أنه قال أن السروات، والطائف جزء منها "عامرة بها الأعناب والزروع"[٥].

وذكر ناصر خسرو بعض الروايات المحدودة عن البلاد والسكان القاطنين جنوب مكة، تحت عنوان اسمه "صفة بلاد العرب واليمن"[٦]. وفي مكان آخر من

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨٦.

(٢) هذا ما لمسته خلال الأربعين عاماً الماضية، وأنا أدرس مصادر التراث الإسلامي، وهذه البلاد (سراة وتهامة) تحتوي على كنوز كثيرة من الرسومات الصخرية والنقوش والآثار البائدة، وهي تستحق أن تجمع وتدرس لعلها تطلعنا على صور حضارية وتاريخية عن هذه البلاد منذ العهد القديم وعبر أطوار التاريخ الإسلامي.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧٩.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٩٥. وهذه العادة كانت وما زالت عند كثير من المكيين منذ عصور ما قبل الإسلام حتى وقتنا الحاضر، بل لم يكن مصيف الطائف مقصوراً على أهل مكة، وإنما كان يأتي إليه من جدة ومن مدن وبلدان إسلامية عديدة. وكتب التراث تذكر أمثلة كثيرة لبعض خلفاء وأمراء وأميرات الدولتين الأموية والعباسية ومن جاء بعدهم الذين كانوا يقضون أوقات الصيف في مدينة الطائف، وقد شاهدت بعض ملوك وأمراء آل سعود الذين اعتادوا قضاء إجازاتهم في الصيفية في الطائف خلال العقود الأخيرة من القرن (١٤هـ/٢٠م) وفي العقدين الأول والثاني من هذا القرن (١٥هـ/٢٠م).

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٩٤. وللمزيد عن كلام هذا الرحالة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتنوع التجارات في مكة المكرمة وغيرها من حواضر ا لحجاز، انظر: المصدر نفسه، ص ٧ وما بعدها.

(٦) ناصر خسرو، سفر نامه، ص ١٤١، وما بعدها.

كتابه يضع عنواناً سماه (الطريق إلى الإحساء)، وذلك بعد الانتهاء من حجة عام (٤٢٢هـ/١٠٣٠م)، ثم يضع أيضاً عنواناً جانبياً، هو الطائف، وقال: "الطائف ناحية في شرق مكة، وتقع المدينة على تلال جبلية مرتفعة، وكان الطقس فيها بارداً جداً، حتى إن الإنسان لا يستطيع الجلوس إلا في الشمس، والطائف موضع أكبر من القرية ودون المدينة، وللطائف سور محكم وسويقة صغيرة، وجامع متوسط الحجم. ومياه الطائف غزيرة، وتكثر في المدينة أشجار الرمان والتين. وفي الطائف قبر عبدالله بن عباس (رضى الله عنه)، ويقع القبر في حافة المدينة، وقد بنى الخلفاء العباسيون حول القبر مسجداً عظيماً، وأدخلوا قبر عبدالله بن عباس في زاوية المسجد تقع على يمين المحراب والمنبر، وبنى الناس حول المسجد منازل كثيرة.."[١]، ثم يواصل الحديث أثناء خروجه من الطائف تجاه اليمامة، وذكر بعض محطات طريقه الواقعة في محيط بلاد الطائف، ووصف حالة البوادي في تلك الأصقاع، وأشار إلى ظاهرة السلب والنهب في تلك النواحي، ولم يكن هناك أي قوة سياسية أو إدارية تضبط سكان البلاد الواقعة بين الطائف واليمامة[٢].

أما الجغرافي البكري فيعدد مخاليف مكة النجدية ويذكر فيها الطائف، وقرن المنازل، وعكاظ[٣]. ويذكر أيضاً بعض قبائل السروات ومنها عشائر عامر بن صعصعة من هوازن ويتواجدون في محيط محافظة الطائف[٤]. ويقول عن الطائف "إنما سميت بالحائط الذي بنوا حولها، وأطافوه به، تحصينا لها، وكان اسمها وج، قال أمية بن ابي الصلت:

نحن بنينا طائفاً حصينا يقارع الأبطال عن بنينا[٥]

٧- الإدريسي، وابن جبير، وابن أبي الصيف، وياقوت الحموي (ق٥-ق٧هـ/ ق١١-ق١٣م):

محمد الإدريسي من مواليد مدينة سبتة في المغرب الإسلامي عام (٤٩٣هـ/١١٠٠م)، قام بالعديد من الرحلات في قارات آسيا وافريقيا وأوروبا، وقضى سنوات من عمره عند ملك صقلية، روجر الثاني، وقد دعمه هذا الملك وشجعه على تأليف كتاب شامل يصف

(١) المصدر نفسه، ص ١٦١-١٦٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٢ وما بعدها.
(٣) البكري، معجم ما استعجم، مج١، جـ١، ص٣٠٨-٣٠٩.
(٤) المصدر نفسه. انظر أيضاً ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٩، ص١٥٣.
(٥) البكري، معجم ما استعجم، مج٢، جـ٣، ص ٨٨٦.

فيها مملكته وغيرها من بلدان ذلك الزمان، وقضى هذا الجغرافي والرحالة حوالي (١٥) سنة في إنجاز هذا الكتاب، الذي انتهى من تأليفه في عام (٥٤٨هـ / ١١٥٤م)، وسماه: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، وقد ظل الكتاب ينسب لفترة طويلة إلى حاكم صقلية، فيقال (كتاب رجار) أو (الكتاب الرجاري) نسبة إلى الملك روجر الثاني، ويقع الكتاب في جزئين كبيرين وصدر منه طبعات عديدة[١]. اما ابن جبير فهو محمد بن جبير البلنسي الأصل، الغرناطي الاستيطان، ولد بمدينة بلنسية أو بشاطبة (سنة ٥٣٩، أو ٥٤٠هـ/ ١١٤٤، أو ١١٤٥م)، ومات في الاسكندرية عام (٦١٤هـ / ١٢١٧م). وابن جبير رحالة رائد في ميدان الرحلة، وبخاصة عند الرحالين المغاربة، فقد نهج على منواله واقتبس منه كثير من المؤرخين والرحالة الذين أتوا بعده، وليس أدل على ذلك من تهافت المؤرخين القدامى والمحدثين بل والمستشرقين على الترجمة له وتحقيق ونشر رحلته[٢].

وعنوان رحلة ابن جبير، بعدة عناوين مثل: رحلة الكناني، أو تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار وغيرها، واشتهرت باسم (رحلة ابن جبير). اهتم بها عدد من المستشرقين فدرسوها وحققوها وترجموها إلى عدد من اللغات، وقد طبعت لأول مرة في ليدن سنة (١٨٥٢م) مع مقدمة للمستشرق رايت، وأعيد طباعتها هناك عام (١٩٠٧م). واعتمدنا في بحثنا النسخة التي صدرت عن دار صادر في بيروت، ولم يذكر تاريخ الطبع. ورحلة ابن جبير تحتوي على تفصيلات تاريخية وحضارية عن بلاد مصر والحجاز والعراق والشام، وصقلية، وغيرها[٣].

أما ابن أبي الصيف، فهو الحافظ محمد بن إسماعيل بن علي أبو عبدالله بن أبي الصيف، فقيه شافعي يمني، ولد بزبيد، وجاور بمكة المكرمة وتوفي بها تقريباً سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م)، ألف كتاباً اسماه: زيارة الطائف، وهو مفقود[٤]. أما ياقوت الحموي، فقد ولد في بلاد الروم سنة (٥٧٥هـ/١١٧٩م)، وأتي به أسيراً من أرض الروم وهو صغير،

---

(١) اعتمدنا على النسخة التي صدر من عالم الكتب في بيروت عام (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

(٢) هناك دراسات قديمة وحديثة فصلت الحديث عن هذا الرحالة ورحلته، انظر لسان الدين ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، ص٢٣ القاسم يوسف التجيبي السبتي في كتابه: مستفاد الرحلة، ص ٢٤٣، والمقري، نفح الطيب، (طبعة مصر)، جـ٢، ص١٤٢، وجورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، جـ٣، ص٩٤، ٩٥، وعبدالقدوس الأنصاري، مع ابن جبير في رحلته، ص١٦، والمستشرق الروسي كراتشكوفسكي، الجغرافيا والرحلات (طبعة بيروت، ١٩٨٠م)، ص٦٠-٦٢، وزكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ٧١-٨٨.

(٣) انظر تفصيلات رحلة ابن جبير (بيروت، دار صادر، د.ت)، ص ١١ وما بعدها.

(٤) انظر خير الدين الزركلي. الأعلام: قاموس الأشهر الرجال والنساء (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م)، جـ٦، ص٣٦، انظر أيضاً: محمد سعيد كمال «قطر الطائف ومؤرخوه» مجلة العرب، الجزء الثاني، السنة الثانية (شعبان ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، ص١٠٠-١٠١.

وبيع في أسواق الرقيق في بغداد، فاشتراه تاجر بغدادي أصله من حماة اسمه عسكر بن إبراهيم، فنسب ياقوت إليه وغلب عليه لقب الحموي، وفي عام (٥٩٦هـ/١١٩٩م) أعتق ياقوت من الرق، وعمل في التجارة مع سيده حتى مات الأخير، وبعد موته خرج ياقوت يسيح في الأرض فذهب إلى بلاد آسيا الصغرى، والشام، ومصر، وجزيرة العرب، وإيران، وبلاد ما وراء النهر، واستقر أخيراً في خوارزم حيث بدأ في تأليف معجمه (معجم البلدان) سنة (٦١٢هـ/١٢١٥م) وانتهى منه سنة (٦٢١هـ/١٢٢٤م)، وقد قضى نهاية حياته في حلب ومات فيها سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م). ألف ياقوت كتباً عديدة منها: مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع، وكتاب: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ويعرف أيضاً باسم (معجم الأدباء). أما كتابه (معجم البلدان)، فهو المصدر الذي يهمنا في هذه الدراسة، وهو من المصار المهمة التي لا يستغني عنها الباحث فيما يتعلق بجغرافية وتاريخ بلاد غربي آسيا، درسه وطبعه عدد من المستشرقين، ومن أوائل طبعاته نشرة وستنفلد في ستة أجزاء (سنة ١٨٦٦-١٨٧١م)، وطبع في القاهرة في عشرة أجزاء (سنة ١٣٢٣هـ / ١٩٠٦م). أما النسخة التي اعتمدنا عليها فهي طبعة داري بيروت وصادر المطبوعة عام (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م)[١].

ونجد الإدريسي يذكر تفصيلات تاريخية وحضارية قيمة عن الطائف والطريق المؤدية إليها، فيقول: "وفي شرق مكة الطائف، وبينهما ستون ميلاً، والطائف من أرادها من مكة سار منها إلى بئر بن المرتفع، وهي قرية عامرة فيها عرب بادية، ثم إلى قرن المنازل، وهو حصن عامر بأهله على قارعة الطريق، ومنه إلى الطائف، ومن أراد من مكة إلى الطائف يأتي عرفات، ثم إلى بطن نعمان وهو موضع فيه نخيلات، ثم يصعد عقبة كرى ثم يشرف على الطائف، والطائف منازل ثقيف، وهي مدينة صغيرة متحضرة، مياهها عذبة، وهواؤها معتدل، وفواكهها كثيرة، وضياعها متصلة، وبها العنب كثير جداً، وزبيبها معروف يتجهز به إلى جميع الجهات، وأكثر فواكه مكة تصدر عنها، وبالطائف تجار مياسير، وجل بضائعهم صنع الأديم، وأديمها عالي الجودة، رفيع القيمة، وبالنعل الطائفي يضرب المثل، وهذا مشهور، والطائف على ظهر جبل غزوان، وعلى ظهر جبل غزوان بلاد بني سعد المضروب بهم المثل في كثرة العدد، وبه جملة من قبائل هذيل، وليس في بلاد الحجاز بأسرها جبل أبرد من رأس هذا الجبل، وربما جمد به الماء في

(١) انظر هذه الطبعة نفسها، انظر أيضاً عبدالمجيد الذويب " الجغرافيون العرب ودورهم في التعريف بالجزيرة العربية"، ص ٢٩٣، أحمد رمضان، أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٧٧-١٨٨، غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٩، ص ١٥٧-١٥٨.

الصيف لشدة برده..."[١]. ويشير إلى مخاليف مكة ويذكر منها الطائف وقرن المنازل، وعكاظ، ولية[٢]. ويذكر أيضاً الطريق التي تخرج من مكة إلى اليمن عن طريق السيل الكبير، ويشير إلى بعض المحطات الواقعة بين مكة والطائف على تلك الطريق فيقول: "من مكة إلى بئر بن المرتفع وفيه بئر، ثم إلى قرن المنازل، وهي قرية كبيرة.."[٣]. ويذكر بعض التجارات وسوق عكاظ، والعنب وسلع أخرى تُجلب من الطائف إلى أسواق مكة[٤]. ويقول عن عكاظ: "وسوق عكاظ قرية كالمدينة، جامعة لها مزارع ونخل ومياه كثيرة، ولها سوق في الجمعة وذلك يوم الأحد يقصد إليها بأنواع من التجارات المحوج إليها أهل تلك الناحية، فإذا أمسى المساء انصرف كل واحد إلى موضعه ومكانه.."[٥].

ويدون الرحالة ابن جبير معلومات جيدة عن أهل مكة وعاداتهم وصور من تاريخهم الحضاري، ويذكر أن أهل السراة الذين يستوطنون البلاد الممتدة من الطائف إلى سروات غامد وزهران وما جاورهم يأتون إلى مكة في أعداد كبيرة ومعهم من السلع وبعض التجارات الكثيرة وبخاصة الحبوب والفواكه وغيرها[٦]. ويشير في مكان آخر إلى كثرة الثمار والفواكه في أسواق مكة[٧]، ثم يقول: "وهذه الفواكه تجلب من الطائف، وهو على مسيرة ثلاثة أيام منها، ومن قرى حولها، وأقرب هذه المواضع يُعرف بأدم[٨]، وهو من مكة على مسيرة يوم أو أزيد قليلاً، وهو بطن الطائف، ويحتوي على قرى كثيرة"[٩]. ويبدو أن ابن جبير لم يزر الطائف وإنما دون معلوماته مما شاهده في مكة، وفي المسجد الحرام، وربما مما سمعه من بعض أهل السراة والطائف.

وابن أبي الصيف، له كتاب خاص بالطائف، لكننا لم نعثر عليه، فهو مفقود، ونجد له ذكراً عند المؤرخ الميورقي من أهل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)[١٠].

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، جـ١، ص١٤٤-١٤٥.
(٢) المصدر نفسه، جـ١، ص١٤٥. ورد في المتن اسم (ليمة)، ويقصد بها (لية) كما دوناها أعلاه.
(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، جـ١، ص ١٤٥.
(٤) المصدر نفسه، جـ١، ص ١٤١.
(٥) المصدر نفسه، جـ١، ص ١٥٢.
(٦) ابن جبير، الرحلة، طبعة دار صادر، ص ١١٠-١١٣.
(٧) المصدر نفسه، ص ٩٦-٩٨.
(٨) لا ندري ما المقصود بهذا الموضع.
(٩) المصدر نفسه، ص ٩٩.
(١٠) ذكر أن الميروقي يدعى أبو العباس واسمه الأول أحمد، وهو من مؤرخي الطائف، مات عام (٦٧٨هـ/١٢٨٠م) انظر، محمد سعيد كمال، "قطر الطائف ومؤرخوه" مجلة العرب (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، جـ٢، ص١٠٢. وكتاب ابن أبي الصيف عن الطائف عنوانه: (زيارة الطائف).

فيذكر له بعض المعلومات عن قرية وج وشرب الرسول (ﷺ) من بئرها، وأيضاً كتابه عليه الصلاة والسلام لأهل ثقيف، سكان الطائف الرئيسيتين في عهد الرسول (ﷺ)[١].

ويتحدث ياقوت عن بلاد الطائف في بضع صفحات، ويقول عن شكل مفردة الطائف "بعد الألف همزة في صورة الياء، ثم فاء، وهي في الاقليم الثاني"[٢]. ويقول: "وبالطائف عقبة، وهي مسيرة يوم للطالع من مكة، ونصف يوم للهابط إلى مكة"[٣]. ويفصل القول في سبب تسميتها الطائف، ويذكر بعض الأقوام الذين سكنوها، وما دار بينهم من حروب وصراعات، وكيف استطاعت ثقيف أن تسكنها وتسيطر عليها، ويشير إلى بعض الروايات التي تذكر دخول أهل الطائف في الإسلام، وكيف حاصرهم الرسول (ﷺ)، ثم صالحهم وكتب لهم كتاباً[٤]. والطائف مشهورة منذ القديم بمصيفها الجميل، ويشير إليها معاوية بن أبي سفيان فيقول: "أغبط الناس عيشاً عبدي أو قال مولاي سعد، وكان يلي أمواله بالحجاز، ويتربع جدة، ويتقيظ الطائف، ويشتو بمكة"[٥]. ولذلك وصف محمد بن عبدالله النميري زينب بنت يوسف أخت الحجاج بالنعمة والرفاهية، فقال:

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف[٦]

٨- القزويني، والميورقي، وابن المجاور (ق٧هـ/ق١٣م):

ولد أبو عبدالله زكريا بن محمد القزويني المعروف أيضاً بالأنصاري في مدينة قزوين في إيران سنة (٦٠٠هـ/١٢٠٣م)، تنقل في بلاد فارس والشام والعراق، وتولى القضاء في مدينة واسط والحلة بالعراق أيام الخليفة المستعصم العباسي، آخر خلفاء بني العباس (٦٤٠-٦٥٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٥٨م). هذا الرحالة ساح في بلدان عديدة، واطلع على كتب رحالين سبقوه واستفاد منها، واقتبس منها في مدوناته وفي كتبه. وله مؤلفان جيدان هما: (١) آثار البلاد وأخبار العباد، وهو الذي يهمنا في هذا البحث. (٢) عجائب المخلوقات، وهو عمل علمي رائع اشتمل على بيان التقويم الشمسي والنجوم

(١) انظر محمد سعيد كمال. «قطر الطائف ومؤرخوه» ص ١٠٠-١٠١.
(٢) ياقوت، معجم البلدان، مطبوعات داري بيروت وصادر، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، جـ٤، ص ٨.
(٣) المصدر نفسه، جـ٤، ص ٨.
(٤) المصدر نفسه، جـ٤، ص ٨-١١.
(٥) المصدر نفسه، جـ٤، ص ١٢.
(٦) المصدر نفسه، جـ٤، ص ١٢.

والأجرام السماوية والحيوانات والنباتات والمعادن، وكل ما يتعلق بالوحوش والحيوانات المختلفة. وقد قام المستشرق وستنفلد على تحقيق ودراسة ونشر هذين الكتابين في عامي (١٨٤٨-١٨٤٩م). والطبعة التي اعتمدنا عليها في كتاب: آثار البلاد وأخبار العباد، هي طبعة دار بيروت التي صدرت عام (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) [١].

أما الميورقي وابن المجاور فالأول هو، أبو العباس أحمد بن علي بن أبي بكر بن عيسى بن محمد بن زياد العبدري الميورقي، مالكي، أصله من جزيرة ميورقة، إحدى جزر البليار من أعمال الأندلس، جاور بمكة وأخذ من علمائها، ثم سكن الطائف، وتوفي بها سنة (٦٧٨هـ/١٢٨٠م). الف كتاباً سماه: بهجة المهج في فضائل الطائف ووج[٢]. والثاني ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور، وقيل الشيباني الدمشقي. هذا الرحالة من أهل القرن السابع الهجري، وهناك خلاف في نسبه، فبعض الباحثين ينسبه إلى بلاد الشام، وآخرون إلى بلاد فارس أو نيسابور أو غيرها[٣]. وكتابه الذي عُرف به، ويخصنا في هذه الدراسة هو: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، وعرف أيضاً باسم (تأريخ المستبصر). وأول من نبه إلى كتاب ابن المجاور في العصر الحديث هو المستشرق سبرنجر (Sprenger) في عام (١٨٦٤م) فأشاد به وما يشتمل عليه من معلومات تاريخية وجغرافية عن بلدان عديدة في الجزيرة العربية، وأطلق عليه (تاريخ المستبصر)، وفي عام (١٩٣٥م) وبإشراف من الأستاذ سنوك (Snouk) قرر مجلس مؤسسة دي غوى في ليدن تحقيق ونشر كتاب ابن المجاور تحت إشراف المستشرق أوسكر لوفغرين، وصدر في جزئين في مجلد واحد عامي (١٩٥١، ١٩٥٤م) [٤].

والقزويني يفرد عنواناً صغيراً جانبياً في كتابه سماه (الطائف) [٥] وقال عنها: "بليدة على طرف واد، بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخاً، طيبة الهواء شمالية"[٦].

---

(١) انظر الصفحات الأولى من كتاب (آثار البلاد وأخبار العباد)، ص٣-٥. للمزيد انظر أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٢٩٧، وما بعدها.

(٢) انظر الزركلي، الأعلام، جـ١، ص ١٧٥، محمد سعيد كمال. «قطر الطائف ومؤرخوه»، ص ١٠٢.

(٣) انظر بشير إبراهيم بشير. "ابن المجاور: دراسة تقويمية لكتابه (تاريخ المستبصر). بحث منشور في دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، قدم في الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، جـ٢، ص٤١-٦٠. انظر أيضاً غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٩، ص ١٥٨-١٦٠.

(٤) انظر الكتاب نفسه، ص٢ وما بعدها، بشير إبراهيم بشير " ابن المجاور: دراسة تقويمية..."، ص ٤٢ وما بعدها.

(٥) هكذا فعل القزويني يذكر عناوين جانبية لكل موضع أو مدينة يتحدث عنها، وهو ما فعل مع بلدة الطائف، انظر، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٩٧.

(٦) المصدر نفسه، ص ٩٧.

ويذكر عن الأصمعي قوله: "دخلت الطائف، وكأني ابشّر وقلبي ينضح بالسرور، ولم أجد لذلك سبباً إلاّ انفساح جوها وطيب نسيمها. بها جبل غزوان[١] يسكنه قبائل هذيل، وليس بالحجاز موضع أبرد من هذا الجبل... ويشق مدينة الطائف واد يجري بينها يشقها، وفيها مياه المدابغ التي يدبغ فيها الأديم، والطير تصرع إذا مرتْ بها من نتن رائحتها، وأديمها يحمل إلى سائر البلدان ليس في شيء من البلدان مثله. وفي أكنافها من الكروم والنخيل والموز وسائر الفواكه، ومن العنب ما لا يوجد في شيء من البلاد، وأما زبيبها فيضرب بحسنه المثل"[٢]. ويذكر هذا الرحالة تفصيلات أخرى منقولة من مصادر مبكرة عن صنم اللات الذي كان يقدسه أهل الطائف قبل الإسلام، والكروم والأعناب التي كانت في الوهط، وما قال عنها الخليفة سليمان بن عبدالملك عندما شاهد بساتين العنب في الوهط، وذكر بعض أعلام الطائف ودورهم في التاريخ وخص الحجاج بن يوسف الثقفي بالكثير من هذه المعلومات[٣].

ولابن المجاور مدونات عن الطائف، فالناظر في فهارس الجزء الأول من كتاب (تاريخ المستبصر) يجده يذكر عناصر عديدة مثل: من مكة إلى الطائف، والوهط، وخروج سليمان بن عبدالملك إلى الطائف، وبناء الطائف، ومن الطائف إلى صعدة، ومن الطائف إلى جبل بدر[٤]. وكل هذه المحاور تحتوي على أقوال وروايات تاريخية مذكورة في مصادر حجازية كتبت قبل عصر ابن المجاور وبعده. وهناك عناوين أخرى هي **(١)** صفة أهل الطائف، قال فيه "الطائف سامية باردة الماء والهواء، كثيرة الفواكه، زراعتهم الحنطة اللقيمة، التي تشابه اللؤلؤ، وأهلها من ثقيف وقريش على زي أهل مكة في الأكل واللبس. وأهلها يرثوا البنت عند الموت... وللقوم عصبية عظيمة إذا مات بها أحد لم يحمل جنازته إلاّ الشبان، ومع ذلك يقولون: سلم سلمك الله، هذا ما وعد الله، نعم القاضي، وهم يتداولون بالنعش إلى الجبانة، وهم الذين يحفرون القبر"[٥]. **(٢)** السرو، أو صفة هذه الأعمال، ويقصد بذلك بلاد السراة الممتدة من الطائف إلى اليمن. وذكر في هذين المحورين شيئاً من عادات وأعراف هذه البلاد، وطبيعة قراهم وبلداتهم، وهيمنة شيوخهم وأعيانهم، وأيضاً كثرة الزروع والخيرات في بلادهم، التي

(١) أورد القزويني عبارة (جبل عروان)، والصحيح هو (جبل غزوان).
(٢) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٩٨.
(٣) المصدر نفسه، ص ٩٨-١٠٠.
(٤) ابن المجاور، تاريخ المستبصر، جـ١، ص ١٧، ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٧.
(٥) المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٥.

يصدر منها الشيء الكثير إلى أسواق الحجاز، وكيف كان أهل مكة يعتمدون على حبوب وفواكه وخيرات الطائف وما بعدها من بلاد السراة، ويذكر ابن المجاور بعض الأشربة والأطعمة عند تلك البلاد الطائفية أو السروية، ويشير أيضاً إلى الصراعات التي تدور بين عشائر وقبائل تلك الأوطان[١]. وما ذكر ابن المجاور فيه نسبة عالية من الحقيقة، فمن يقرأ التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لبلدان السراة من اليمن إلى الطائف، ومن يطالع كثير من الوثائق والمصادر القديمة يتأكد من الثراء الاقتصادي الذي تنعم به هذه البلاد، فهناك شتى الفواكه والخضروات والحبوب والمواشي، كما يعرف صعوبة وشراسة عشائرها، فكانوا عبر أطوار التاريخ القديم والإسلامي المبكر والوسيط والحديث في حروب ونزاعات دائمة، وكان شيوخ القبائل هم أصحاب الحل والعقد في أوطانهم[٢].

أما كتاب الميورقي: بهجة المهج في فضائل الطائف ووج، فقد حققه الدكتور إبراهيم بن محمد الزيد، ونشر في (١٠٢) صفحة عام (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، وعلى الرغم من شهرة هذا الكتاب عند من جاء بعده من الدارسين والمؤرخين الذين اطلعوا عليه ونقلوا منه، وأكثر ما اهتم به هذا الكتاب الفضائل التي تخص مدينة الطائف، ولهذا احتوى هذا المؤلف على روايات ضعيفة تردد العلماء في قبولها، وقد جمع محقق الكتاب، الدكتور الزيد، معظم هذه الروايات ونقدها في الصفحات (١٩-٢٣) من كتاب الميورقي[٣].

٩-أبو الفداء، وابن فضل الله العُمري، وابن بطوطة، والفيروزآبادي (ق٧-٨هـ/ق١٣-١٤م).

ولد أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن أيوب في دمشق سنة (٦٧٢هـ / ١٢٧٣م)، وذلك بعد استقرار أهله فيها فراراً من وجه المغول، وكان جده أميراً على حلب، وقد استعادت أسرته مجدها في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي عين أبو الفداء حاكماً سنة (٧١٠هـ / ١٣١٢م)، وانتهى الأمر بتنصيبه سلطاناً لمملكة حماه، ولقب بالملك المؤيد سنة (٧٢٠هـ/١٣٢٠م)[٤]. ألف أبو

---

(١) ابن المجاور، جـ١، ص ٢٥، ٣٧-٣٨.

(٢) هذه البلاد تستحق دراسات تاريخية وحضارية موثقة عبر أطوار التاريخ، ونأمل من كليات الآداب وأقسام الاثار والتاريخ في الجامعات السعودية أن تولي هذه الأوطان اهتماماً في بحوثها ودراساتها.

(٣) حبذا أن نرى باحثاً جاداً أو طالب من طلاب برامج الدراسات العليا في التاريخ والآثار بجامعاتنا السعودية يدرس تاريخ الطائف خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة، أو في عصور ما قبل الإسلام، أو في العصر الحديث، فهذه البلاد لم تنل حضها من البحث والدراسة العلمية الموثقة.

(٤) انظر، أحمد رمضان أحمد. الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٩٧ وما بعدها، عبدالمجيد الذويب، «الجغرافيون العرب ودورهم في التعريف بالجزيرة العربية»، ص ٢٩٤.

الفداء كتاب: مختصر تاريخ البشر، وكتاب: تقويم البلدان، والذي يهمنا الكتاب الثاني، فقد اعتمد في تدوين مادته على بطليموس والبيروني، وحاز هذا الكتاب شهرة عظيمة، وقسمه إلى جزئين، مقدمة جغرافية ورياضية، ومحتوى يشتمل على عموميات عن البلاد التي زارها أو درسها، وجدول يحوي أسماء الأمكنة والمصادر والطول والعرض، وخلاصة وصفية لكل بلدة أو مكان[١].

أما ابن فضل الله العُمري فقد ولد في دمشق سنة (٧٠٠هـ/١٣٠١م)، وبدأ في طلب العلم، وتعلم على أيدي مشائخ وعلماء عديدون، وكتب عدداً من المؤلفات، ومن أهمها موسوعته: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، التي قال عنها في مقدمة كتابه: "لا أعني ذوي الممالك الصغار، إذا كان في مملكة سلطان قاهر عليهم، آمر فيهم؛ إذ هم جزء من كل، بل الذكر لكل سلطان يستحق اسم السلطنة، لاتساع ممالك وأعمال، وكثرة جنود وأموال، ويتغطى بذيله من لعله في مملكته من ذوي الممالك الصغار"[٢]. تقلد أبو الفداء بعض الوظائف الإدارية في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وحصر حديثه في موسوعته على ممالك الإسلام، ولم يكتب عن غيرها. والجزء الذي استفدنا منه في بحثنا، هو الخاص بممالك مصر والشام والحجاز واليمن، تحقيق أيمن فؤاد سيد، وطباعة ونشر المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.

كما ولد شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي ابن بطوطة في مدينة طنجة سنة (٧٠٣هـ / ١٣٠٤م)، وتوفي سنة (٧٧٠هـ) وقيل سنة (٧٧٩هـ/١٣٦٨، ١٣٧٧م)، قضى حوالي ثلاثين عاماً من عمره في السفر والتجوال شرقاً وغرباً، فزار عدداً كثيراً من المدن والبلدان، وحج ثلاث مرات (٧٢٦، ٧٢٧، ٧٣٠هـ/ ١٣٢٥، ١٣٢٦، ١٣٢٩م). كتب رحلته ابن جزي الكلبي، وحققت ونشرت لأول مرة في باريس بين سنتي (١٨٥٣، ١٨٥٩م). ثم طبعتها دار صادر في بيروت سنة (١٩٦٠م) مع مقدمة مختصرة لكرم البستاني، ثم طبعت فيما بعد طبعات عديدة، والطبعة التي اعتمدنا عليها طبعة دار الكتب العلمية في بيروت، الطبعة الرابعة (٢٠٠٧هـ/١٤٢٨م)، شرح وتعليقات طلال حرب[٣]. كما ترجمت هذه الرحلة إلى لغات عديدة مثل: التركية، والفرنسية، والإيطالية، والفارسية، والانجليزية[٤].

---

(١) المرجعان نفسهما. انظر أيضاً، تقويم البلدان لأبي الفداء، تحقيق رينود، والبارون ماك كوكين ديسلان، طبعة باريس عام (١٨٤٨م).

(٢) انظر مقدمة هذا الجزء، ص ٢ وما بعدها، انظر أيضاً أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، ص٢٠٩-٢٢٠.

(٣) انظر مقدمات هذه الطبعة، ص٥ وما بعدها.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٠-٢٣.

وهـؤلاء الجغرافيـون الثلاثـة زاروا الحجـاز، وذكـروا شـيئاً من تاريخ وحضـارة حواضـرها، وذكر بعضـهم الطائف، فأبو الفداء كتبها بفتح الطاء المهملة وألف، وكسر المثنـاة مـن تحت، وفي آخرها فاء، ثم قـال: "والطائف بليدة كثـيرة الفواكه، وهي على ظهـر جبـل غزوان، وهو أبرد مكان بالحجاز، وربما جمد المـاء في ذروة غزوان المذكور، وأكـثر ثمرها الزبيب، وهـي طيبة الهواء، وقال في المشـترك نعمان بفتـح النون والعين المهملـة، واد بـين مكة والطائف، ويقال له نعمان الأراك"[١]. وابن فضـل الله العُمري لا يخص الطائف بحديث محدد وإنما يتكلم عن بلاد السـراة الممتدة من الطائف شـمالاً إلى سـروات بجيلة وغامـد وزهران وما جاورها من أرض السـراة فيقـول: "هي جبال شـامخة عليَّـة، ذات عيون دافقة ومياه جاريـة، على قرى متصـلة، الواحدة إلى جانب الأخرى، وليسـت الواحدة تعلق بالأخرى، لكل واحدة أهل يرجع أمرهم إلى كبيرهم، لا يضـمهم مُلك مَلك، ولا يجمعهم حكم سـلطان، ولا تخلو قرية منها من أشجار وعروش ذوات فواكـه أكثرها العنب واللوز، ولها زروع أكثرها الشـعير، ولأهلها ماشـية أعوزتها الزرائب وضـاقت بها الحظائر. وأهلها أهل سـلامة وخير وتمسـك بالشـريعة ووقوف معها، يعضـون عليهـا بالنواجذ، ويقُرون كل من يمر بها، ويضـيفونه مـدة مقامه حتى يفارقهم، وإذا ذبحوا لضـيفهم شـاة، قدموا له جميع لحمها ورأسها وأكارعها وكرشها وكبدهـا وقلبهـا، يأكل ما يأكل ويحمـل ما يحمل. وأهل هذه البـلاد لا يفارق أحد منهم قريته مسـافراً لأخرى إلاّ برفيق يسـترفقه منها ليحفزه، وإلاّ فـلا يأمن أولئك العداوة بينهم وتفرق ذات بين"[٢]. ونجد هذا الجغرافي يدون لنا وصـفاً دقيقاً عن بلاد وسكان السـروات، بما في ذلك حاضرة الطائف، فتضاريسها جبال ووهاد متنوعة في أشكالها، وهي مأهولة بالسـكان ومليئة بالثروات الزراعية والحيوانية، كما أن أهلها كرماء وأهل عقيدة صافية، إلاّ أن الأمن يكاد يكون مفقوداً في أوطانهم، والقبائل وشيوخهم هم أهل السـطوة والهيمنة في البلاد، بل إن كل عشـيرة أو ربما قرية أو بلدة مسـتقلة بذاتها، ولا توجد إدارة مركزية لهذه البلاد تسـوس أحوالهم السياسـية والإدارية والحضـارية[٣]، وربما مدينة الطائف الرئيسية كانت أحسن حالاً في وضعها الأمني والإداري من غيرها في ارض السـراة، وذلك لصـلتها القوية بمكـة المكرمة، ثم أنها كانـت مهوى لكثير من

(١) أبو الفداء، تقويم البلدان، طبعة باريس (١٨٤٨م)، ٩٤-٩٥.

(٢) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار وممالك الأمصار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ص ١٦٧.

(٣) هكذا كان وضع بلاد تهامة والسراة، بل عموم الجزيرة العربية خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة وحتى بدايات النصف الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م)، فالحروب والصراعات كانت ديدن أهل البلاد، والأمن مفقود في معظـم القرى والأريـاف والبلدات، وهذا ما تذكره وتشـير إليه كثير من المصـادر والوثائق التي تحدثت عن بلدان الجزيرة العربية منذ ظهور الإسلام حتى العصر الحديث.

الخلفاء والسلاطين والأمراء الذين يرتادونها من وقت لآخر، ولهذه الأسباب لا بد أن تكون في وضع أمني جيد[١].

ولا يختلف ابن بطوطة كثيراً عن ابن فضل الله العُمري وبعض الرحالة والجغرافيين الذين سبقوه فيذكرون أهل السروات من الطائف وما جاورها من الناحية الجنوبية فكانوا أصحاب عقائد صادقة، وقد شاهدهم ابن بطوطة ومن قبله ابن جبير وهم يأتون إلى مكة المكرمة لأداء الحج والعمرة، وما يتصفون به من سلوكيات تغلب عليها النية الصادقة والإقبال على الله أثناء ممارسة عباداتهم في المسجد الحرام[٢]. كما أن أهل الطائف والسروات يرتادون مكة المكرمة باستمرار ويجلبون معهم الحبوب، والسمن، والعسل، والزبيب، والزيت، واللوز، فترخص الأسعار بمكة، ويرغد عيش أهلها، وكان أهل مكة ينتظرون ميرة أهل السروات والطائف بفارغ الصبر[٣]. ويذكر ابن بطوطة أن أهل الطائف خاصة كانوا يزودون بعض الأربطة في مكة المكرمة بالكثير من الثمار والفواكه، ويقول: ((ومن عاداتهم أن كل من له بستان من النخيل والعنب والفرسك، وهو الخوخ، والتين، وهم يسمونه الخمط يخرج منه العشر لأربطة مكة، ويوصلون ذلك إليهم على جمالهم))[٤].

أما الفيروزآبادي، فهو: محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، أبو طاهر، مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي، ولد بكازرن من أعمال شيراز عام (٧٢٩هـ/١٣٢٩هـ)، وانتقل إلى العراق، ورحل إلى مصر والشام وبلاد الروم والهند، واستقر به المقام في زبيد باليمن، فسكنها، وولي قضاءها، وتوفي سنة (٨١٧هـ / ١٤١٥م). وإلى جانب معجمه في اللغة (القاموس المحيط)، فإن له مصنفات كثيرة عن تاريخ مكة والمدينة والطائف، وعن الأخيرة ألف كتابين: هما: أحاسن اللطائف في محاسن الطائف، وفصل الدرة في الخرزة في فضل قرية السلامة على الخبزة. والكتابان مفقودان، وقد ذكرهما الذين ترجموا له[٥].

---

(١) مدينة الطائف تتبع إدارياً مكة عبر أطوار التاريخ الإسلامي، بل إنها كانت من المدن الرئيسية والمهمة لولاة مكة والخلفاء وأمراء بني أمية وبني العباس ومن جاء بعدهم فكان البعض منهم يصعد إليها ويقضي بها بعض الوقت، ومعظمهم يمتلكون بها العقارات المختلفة.

(٢) للمزيد انظر ابن بطوطة، الرحلة، ص١٨٠، وانظر أيضاً ابن جبير، الرحلة، ص٩٩، ١١٠-١١٢.

(٣) المصدر السابق، نفسه.

(٤) ابن بطوطة، الرحلة، ص ١٧٢.

(٥) للمزيد انظر، خير الدين الزركلي، الأعلام، جـ٨، ص٣٦، ٣٧، محمد سعيد كمال. «قطر الطائف ومؤرخوه» جـ٢، صـ١٠٣، ١٠٤. وقد بذلنا جهوداً كبيرة للعثور على هذين الكتابين لكننا لم نجدهما، وقد يتم العثور عليهما في قادم الأيام.

١٠- ابن فهد، وابن عراق الكناني، وعبدالقادر الفاكهي، ومحمد البكري (ق٩-١١هـ / ق١٥- ق١٧م):

ابن فهد، هو محمد بن عبدالعزيز بن عمرو بن محمد بن فهد الهاشمي، جار الله، أبو الفضل محب الدين ولد بمكة (٨٩١هـ/١٤٨٦م)، ومات عام (٩٥٤هـ/١٥٤٧م)، وهو من أسرة اشتهرت بالتأليف عن تاريخ الحجاز وبخاصة مكة المكرمة وغيرها من مدن الحجاز الأخرى. ولهذا المؤرخ كتاب عن الطائف سماه: تحفة اللطائف في فضائل الحبر ابن عباس ووج والطائف.

وهو من أكبر الكتب التي ألفت عن الطائف، راجعه وعلق عليه الأستاذان محمد سعيد كمال، ومحمد منصور الشقحاء، وطبعه ونشره نادي الطائف الأدبي عام (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ويقع في (١٦٧) صفحة من القطع المتوسط[١]. أما ابن عراق الكناني، فهو علي بن محمد بن علي بن عبدالرحمن بن عراق الكناني الدمشقي الحجازي، سعد الدين، وقيل: نور الدين، وقيل: علاء الدين، أبو الحسن المعروف بابن عراق، ولد في ذي الحجة سنة (٩٠٧هـ/١٥٠٢م) ببيروت، ومات في المدينة المنورة عام (٩٦٣هـ/١٥٥٦م)، حفظ القرآن في صغره، ورحل إلى المدينة، وولي خطابة المسجد النبوي. وله بعض المؤلفات، منها: نشر اللطائف في قطر الطائف، قام بدراسته وتحقيقه الدكتور عثمان الصيني، ونشر ضمن مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ويقع في (١٢٢) صفحة من القطع المتوسط[٢]. أما عبدالقادر الفاكهي، فقد ولد بمكة سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م)، ومات بها سنة (٩٨٢هـ/١٥٧٤م)، وله عدة مؤلفات منها: عقود اللطائف في محاسن الطائف، ولا يزال مخطوطاً، ويتكون من مقدمة وثمانية أبواب وخاتمة، وهو غير مرتب في أبوابه وصفحاته[٣]. أما محمد البكري، فهو محمد بن علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي، مفسر، وعالم بالحديث، ولد بمكة المكرمة سنة (٩٦٦هـ/١٥٨٨م)، وتوفي بها سنة (١٠٥٧هـ/١٦٤٧م). له مصنفات ورسائل عديدة، ومنها عن الطائف: الطيف الطائف بتاريخ وج والطائف، ومنه نسخة مخطوطة بمكتبة الحرم المكي الشريف برقم (١٢٠/ دهلوي) في (٤٨) صفحة[٤].

---

(١) انظر الكتاب نفسه، ص٥ وما بعدها، وانظر أيضاً، الزركلي، الأعلام، جـ٦، ص٢٠٩، محمد سعيد كمال «قطر الطائف ومؤرخوه، ص١٠٤-١٠٥.

(٢) انظر الكتاب نفسه، ص٩ وما بعدها، وللمزيد انظر محمد سعيد كمال. "قطر الطائف..." ص١٠٧، ١٠٨، الزركلي، الأعلام، جـ٥، ص١٢. كما أن عثمان الصيني ذكر عدداً من مؤرخي الطائف في القرون الإسلامية الوسيطة والحديثة في مقدمة تحقيقه لهذا الكتاب، انظر ص ١٨.

(٣) انظر، الزركلي، الاعلام، جـ٤، ص٣٦، محمد سعيد كمال، «قطر الطائف...» ص ١٠٦-١٠٧.

(٤) محمد سعيد كمال " قطر الطائف..."، ص ١٠٨-١١٠. الزركلي، الأعلام، جـ٦، ص ٢٩٣.

وكل هذه الكتب الأربعة السابق ذكرها تدور في فلك وج والطائف والحبر ابن عباس، فكتاب ابن فهد، -وهو كما ذكرنا أكبرها- يقع في مقدمة وخاتمة، وبابين، الباب الثاني يقع في ثلاثة فصول، بالإضافة إلى مقدمة للمراجعين وتمهيد. والباب الأول عنوانه: في ذكر نكت من أخبار وج والطائف، ودخول النبي (ﷺ) لها واسلام أهلها وفضلهم، وما قيل في ذلك من الآثار[١]. والباب الثاني في ثلاثة فصول: الأول: فضائل سيدنا العباس، وابنه عبدالله بن العباس... ونبذ من فضائل أبي القاسم محمد بن الحنفية[٢]. والثاني: في فضائل الإمام البحر ترجمان القرآن... أبي العباس عبدالله بن العباس[٣]. والثالث: في بعض فضائل إمام الأئمة أبي عبدالله المعروف بابن الحنفية[٤]. كما أشار المؤلف في نهاية الكتاب إلى بعض الآثار الإسلامية الموجودة في بعض مساجد الطائف، وبخاصة مسجد عبدالله بن عباس وبعض القبور، وقد نقل بعض معلوماته من المؤرخ المكي الفاسي ولها علاقة بمساجد الطائف[٥].

والمؤرخون الآخرون، الكناني، والفاكهي، والبكري لم يذهبوا بعيداً عما ذهب إليه ابن فهد، فأقوالهم، وأغلبها منقول من مصادر تاريخية سابقة لعصورهم، تدور في محيط تاريخ الطائف ووج في صدر الإسلام، وعن عبدلله ابن عباس ومسجده، وبعض معالم الطائف وآثارها الأخرى[٦].

١١- العياشي، والعجمي، والقنوي، والموسوي (ق١١- ق١٢هـ/ ق١٧- ١٨م).

العياشى، هو أبو سالم بن عبدالله بن ابي العياشي، نسبة إلى قبيلة آيت عياشي. ولد بفاس عام (١٠٣٧هـ/١٦٢٧م) وتوفي بها سنة (١٠٩٠هـ/١٦٧٩م)، أديب وفقيه صوفي صنف كتباً عديدة، لكنه اشتهر برحلته التي وصف فيها طريق الحاج من المغرب إلى مكة. وقد اهتم اهتماماً كبيراً بقبور الصالحين، وزار الطائف عام (١٠٧٣هـ/١٦٦٢م)، وسجل ملحوظاته عنها، وعن بقية مدن الحجاز، والأقاليم التي مر بها في طريقه على

(١) انظر الكتاب نفسه: تحفة اللطائف في فضائل الحبر ابن عباس ووج الطائف، ص ٦١.
(٢) المصدر نفسه، ص ٨١.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٣.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٢٩.
(٥) للمزيد انظر، ابن فهد، تحفة اللطائف في فضائل الحبر ابن عباس ووج والطائف، الخاتمة، ص ١٣٩ وما بعدها.
(٦) للمزيد انظر، الزركلي، الأعلام، جـ٤، ص٣٦. جـ٥، ص١٢، جـ٦، ص ٢٩٣، محمد سعيد كمال «قطر الطائف ومؤرخوه» ص١٠٦-١١٠.

الأماكن المقدسة في رحلته المسماة (ماء الموائد) أو (الرحلة العياشية)، وقد طبعت في الرباط عام (١٩٧٧م)[١]. أما العجمي، فهو حسن بن علي بن يحيى بن عمر بن أحمد بن محمد بن أحمد من جمال الدين بن عبدالواحد شرف الدين، أبو البقاء الحنفي المكي، من أسرة مكية ذات أصل مصري، ولد بمكة سنة (١٠٥٠هـ/١٦٤٠م)، وتوفي بمدينة الطائف عام (١١١٣هـ/١٧٠٢م)، وله مؤلفات كثيرة منها: اهداء اللطائف من أخبار الطائف، حققه الدكتور يحيى محمود بن جنيد ساعاتي، ونشرته دار ثقيف سنة (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ويقع في (١١١) صفحة من القطع المتوسط[٢]. أما القنوي، فهو محمد بن عبدالكريم القنوي، كان حياً عام (١١٤٩هـ/١٧٣٦م)، وله رسالة في فضائل عبدالله بن عباس وفضائل الطائف، وما زالت مخطوطة في مكتبة الحرم المكي[٣]. أما الرحالة الموسوي، فهو العباس بن علي بن نور الدين بن ابي الحسن المكي الحسيني الموسوي، أديب، ورحالة، ولد وعاش في مكة المكرمة، وسافر إلى العراق، والهند واليمن فيما بين سنتي (١١٣١-١١٤٢هـ/١٧١٨-١٧٢٩م)، وكان يعود ويحج في أكثر السنين، انتهى به المطاف في بندر المخا ومكة، ثم استقر في مدينة المخا سنة (١١٤٥هـ/١٧٣٢م)، وعكف على ما جمع من أوراق ودون رحلته في جزئين، وسماها: نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس[٤].

وإذا توقفنا مع هؤلاء المؤرخين والرحالة الأربعة، فأقلهم إشارة إلى الطائف القنوي، أما العجمي فجل كتابه عن الطائف، ويتكون من بابين، الأول في فضل الطائف ووج، والثاني: ذكر للآثار والمشاهد الواقعة في الطائف، وما حولها، مثل: المساجد، والمقابر، والآبار، والعيون، والقرى، والحصون، وبعض الجبال[٥]. أما العياشي فيدون وصفاً لمحطات الطريق من مكة إلى الطائف عبر وادي نعمان وعقبة الهدا، ويذكر نشاط تلك الطريق وكثرة المسافرين فيها، ويشير إلى وجود قهاوي ومحطات للاستراحة والأكل والشرب على هذه الطريق. وعندما وصل الطائف ذكر بعض فضائلها، وفضائل مسجد عبدالله بن عباس، التي ربما قرأها أو نقلها من بعض المؤلفين الذين سبقوه[٦]. ويقول

---

(١) انظر الزركلي، الأعلام، جـ٤، ص١٢٩. والجزء الخاص بالطائف نشره حمد الجاسر في مجلته (العرب) تحت عنوان: «لطائف في القرن الحادي عشر». مجلة العرب، جـ٤، سنة (٧) (شوال ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)، ص ٢٩٤-٣٠٠. انظر أيضاً ناصر بن علي الحارثي «الطائف في رحلتي العياشي والموسوي في القرنين (١١-١٢هـ)» منشور في كتاب: الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م). جـ١، ص ١٣٧-١٥١.

(٢) انظر الكتاب نفسه، ص٥ وما بعدها. انظر أيضاً الزركلي، الأعلام، جـ٢، ص٢٠٥، محمد سعيد كمال «قطر الطائف ومؤرخوه»، ص ١١٠-١١.

(٣) الزركلي، جـ٦، ص ٢١٦، ومحمد سعيد كمال " قطر ... " ص١١١.

(٤) الزركلي، الأعلام، جـ٣، ص ٢٦٣، ناصر الحارثي «الطائف في رحلتي العياشي والموسوي»، ص ١٣٧ وما بعدها.

(٥) انظر كتاب العجمي، إهداء اللطائف من أخبار الطائف، ص٥ وما بعدها.

(٦) انظر، رحلة العياشي (ماء الموائد)، ص ١١٦ وما بعدها.

عن الطائف، "وصلنا بلد الطائف، وهي قصور في مستو من الأرض تحيط بها جنات من نخيل قليل وأعناب كثيرة، وفواكه مما يشتهون..."[١] وعن الحياة الاقتصادية في الطائف، يقول: "وفي هذا البلد أسواق حافلة يحضرها الناس من أطراف نجد، ويجلب إليها من الحبوب والثمار والزبيب والعسل ما قضينا العجب من كثرته، بحيث يخيل إلينا أنا لم نر مثل ذلك في الكثرة في الأسواق العظيمة"[٢] وأشار إلى تفشي الأمراض في الطائف، وسبب تلك الأمراض هطول الأمطار الكثيرة في الوقت الذي زار فيه الطائف. كما قابل بعض الشخصيات في الطائف وذكر أسماء بعضهم مثل: الشيخ عبدالعزيز بن حسن بن عيسى التواتي، الذي كان رئيس المقرئين وأستاذ المجودين، والفقيه عمر المدني، وعبدالرحمن وهؤلاء كلهم مغاربة جاوروا وأقاموا في الطائف[٣].

أما الرحالة الموسوي فقد سلك الطريق التي سلكها العياشي عبر عرفات ثم وادي نعمان، فالهدا حتى الطائف[٤]، وذكر شيئاً مما رأى في حاضرة الطائف، فقال إنها "أكبر مدن الحجاز، وأهله كانوا – سابقاً – في ثروة من الغنى والمال، ويجلب منها إلى مكة الفواكه النفيسة وغير ذلك من الحبوب والشعير والسمن والعسل واللوز وغيره. وبالطائف أخلاط كثيرة من العرب والهنود، وهي منازل ثقيف، وبها مياه عذبة، وفواكه مختلفة وثمار شتى، وبها ديار بني سعد الذين يضرب بهم المثل في الكثرة، وبها أقوام من قريش، وهذيل، وثمالة، وبني محمد، وناصرة، وبجيلة، وليس في الحجار أطرى من الطائف، ولا أصح من هوائها ومائها.. ويجلب منها الجلود الطائفية وغير ذلك من الأصناف[٥]". وقد رجع الموسوي إلى مكة عن طريق وادي نعمان لأداء موسم الحج، ثم زار الطائف مرة أخرى عن طريق وادي السيل، وذكر وصفاً لبعض محطات تلك الطريق مثل: البرود، والزيما (الزيمة)، والسيل، وذكر بعض ساكنيها من الأشراف[٦].

وفي مكان آخر أشار إلى بعض الشخصيات العلمية والدينية والسياسية التي قابلها في الطائف، ودون بعض الصفات التي شاهدها في سلوكيات وتعاملات بعض الأعلام الذين خالطهم وتعامل معهم[٧]. كما وصف بعض الدروب القديمة التي سلكها بين مكة

(١) المصدر نفسه، ص١١٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٣.
(٣) المصدر نفسه، ص ١١٧-١٢٠، ١٢٣.
(٤) انظر الموسوي، نزهة الجليس، جـ٢، ص ٣٩٨، ٤٠٠، ٤٠٢.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٤٠٩.
(٧) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٤٩٢، ٢٩٤، ٢٩٥.

والطائف واليمن، وانفرد بوصف الطريق من الطائف إلى ميسان ببلاد بني الحارث مروراً بلية وبلاد بني سعد[١].

وقال الرحالة الموسوي بعض القصائد التي يتغزل فيها بالطائف وما جاورها، وأحياناً يصف طبيعة وهواء الطائف[٢]، ودون قصيدة من عشرة أبيات عندما مر بالهدى، قال في مطلعها:

لقد زاد شوقي يا أخلّاي للهدا بلاد بها الإحسان والجود والهدى[٣]

وقال بعض الشعر يحبب فيه سكنى الطائف والمجاورة بها، فقال:

عليكم سلام الله يا يحبب الطائفْ فأنتم وحق المصطفى ملجأ الخائفْ
وحياكمُ رَبُ الأنام بلطفهِ وطاف عليكم بالرضا والهنا طائفْ[٤]

١٢- بوركهارت، وليون روش، وتاميزيه (ق١٢- ق١٣هـ/ق١٨- ١٩م).

بوركهارت (Burchart)، هو جون لودفيج، ولد عام (١١١٩هـ/١٧٨٤م) من أب سويسري، كان يعمل ضابطاً برتبة عقيد، هرب من بلدته عندما اجتاحتها الجيوش الفرنسية، درس في ألمانيا ثم بريطانيا، وانخرط في خدمة الحكومة البريطانية، درس اللغة العربية وعلوماً أخرى في جامعة كمبردج، قام بالعديد من الرحلات في أفريقيا وآسيا، وأطلق لحيته وادعى الإسلام، وتسمى بالشيخ (إبراهيم بن عبدالله الشامي) وانضم إلى قافلة حج سودانية ونوبية، وسار معهم من سواكن بحراً حتى وصل ميناء جدة، ثم سار منها إلى الطائف ومكة والمدينة خلال عامي (١٢٣٠-١٢٣١هـ/١٨١٤-١٨١٥م)، ثم عاد إلى القاهرة وتوفي بها في سنة (١٢٣٣هـ/١٨١٧م). ورغم أنه لم يتجول في أنحاء الجزيرة العربية، فقد قدم مادة جيدة وجديدة عن الأمكنة التي زارها في الحجاز، وذلك في كتابه: رحلات إلى شبه الجزيرة العربية (Travels In Arabia)[٥]. ويعد بوركهارت أول رحالة غربي يزور الطائف[٦].

---

(١) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٤٠٠ وما بعدها، انظر ايضاً الزركلي، الأعلام، جـ٣، ص ٢٦٣، ناصر الحارثي «الطائف في رحلتي العياشي والموسوي» جـ١، ص ١٤٢-١٤٤.

(٢) الموسوي، نزهة الجليس، جـ٢، ص ٣٩٣، ٣٩٤، ٤١٢.

(٣) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٣٨٤، ٣٨٥.

(٤) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٣٨٥ وما بعدها.

(٥) انظر هذا الكتاب باللغة العربية (بيروت: الانتشار العربي، ٢٠٠٥م).

(٦) انظر روبن بدول. الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية. ترجمة عبدالله آدم نصيف (الرياض، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص ٤٤-٥٣، محمد سعيد الشعفي. كتاب بوركهارت كمصدر تاريخي واقتصادي للدولة

وليون روش (Leon Roches) فرنسي الجنسية، ولد في غرونوبل، إحدى محافظات فرنسا، عام (١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م)، شارك مع والده في الحملة الفرنسية على الجزائر سنة (١٨٣٠م)، تعلم ليون اللغة العربية، وخالط الناس في اجتماعاتهم العامة والخاصة، وخدم في الإدارة الفرنسية بالجزائر، وادعى الإسلام، ثم عمل مع الأمير عبدالقادر، وقد اعترف بذلك في بعض مؤلفاته، وأعلن عدائيته لهذا الأمير الجزائري[١]. قام ليون روش برحلة إلى الحجاز عام (١٢٥٧-١٢٥٨هـ/ ١٨٤١-١٨٤٢م) متنكراً في زي حاج مسلم يدعى (عمر بن عبدالله)، وكان هدفه الظاهري مقابلة شريف مكة عندئذ محمد بن عون، والحصول من علماء الحرم على الموافقة على نص فتوى شرعية جاء بها من الجزائر تذكر أن الجهاد ضد الفرنسيين من باب إلقاء النفس إلى التهلكة، ومن ثمة يستحسن الرضا بحكم الفرنسيين في الجزائر، وعدم شرعية حركة المقاومة التي كان يقودها الأمير عبدالقادر الجزائري. وأثناء وجود روش في الحجاز وأدائه المناسك وصف المسالك والمدن والناس وحياة المسلمين هناك في مختلف وجوهها، ثم جمع ذلك وغيره من المواد في مذكرات ونشرها في جزئين بباريس سنة (١٨٨٤م)، وسماها: اثنان وثلاثون عاماً في الإسلام. والجزء الأول عن أوضاع الجزائري السياسية وحياة وجهاد الأمير عبدالقادر الجزائري. أما الجزء الثاني، فقد خصصه لمهمته في الحجاز وحياة المرشال بيجو (قنصل فرنسا في جدة)، وتبدأ الرحلة منذ خروجه من الجزائر إلى تونس ثم إلى مصر، وقد خصص للحجاز حوالي (٩٠) صفحة من كتابه تحدث فيها عن مكة المكرمة، والمناسك، والطائف، وجدة، وادعى هذا الرحالة أنه ثالث مسيحي يدخل مكة بعد دمونغو باديا، المعروف باسم علي باي سنة (١٨٠٧م)، وبوركهارت سنة (١٨١٤م)[٢].

أما تاميزيه، فاسمه الأول موريس، وهو من الرحالة الفرنسيين المجهولين، ولم يحظ بسمعة واسعة، جاء إلى الجزيرة العربية ضمن الحملة المصرية التي سارت إلى عسير سنة (١٢٤٩هـ/ ١٨٣٤م)، وكان أميناً لسر رئيس الأطباء في تلك الحملة، وكان عمره آنذاك اثنان وعشرون عاماً، ومن هذه الرواية يتضح لنا أنه من مواليد عام (١٢٢٧هـ /

السعودية الأولى. جامعة (الرياض) الملك سعود (دراسات تاريخ الجزيرة العربية) الجزء الثاني، ط(الرياض: مطابع جامعة الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ص ٤٥٣-٤٦٣، عبدالعزيز صالح. الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث في شبه الجزيرة. (الكويت، ١٩٨١م)، ص ٢٩-٣٠.

(١) انظر، روبن بدول. الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة عبدالله آدم نصيف (الرياض، ١٤٩٠هـ/١٩٨٩م)، ص ١١٠-١١٢، بلقاسم سعد الله. «رحلة ليون روش إلى الحجاز (١٨٤١-١٨٤٢م)» الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية (الرياض: مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ)، جـ١، ص٢٤٩ وما بعدها. انظر عن حياة ليون روش، الرحلة التي هي مذكراته، وكتاب يوسف مناصريه. مهمة ليون روش في المغرب (الجزائر، ١٩٩٠م)، ص٢٧ وما بعدها.

(٢) صدر كتاب ليون روش في جزئين بباريس عن مكتبة فيرمان، ديدو (مطبعة المعهد، ١٨٨٥م)، انظر أيضاً بلقاسم سعد الله "رحلة ليون روش..." ص ٢٤٨-٢٨٢.

١٨١٢م). تعلم اللغة العربية قبل قدومه إلى جزيرة العرب، وكان عنده بعض المعارف في الجيولوجيا وفي علم الحيوان والنبات، كما زار الحبشة سنة (١٢٥١هـ/١٨٣٦م) وبعد عودته إلى بلاده سجل مشاهداته في عملين جيدين. الأول: رحلة في بلاد العرب، ونشر عام (١٨٤٠م) في جزئين، تُرجم الجزء الخاص ببلاد عسير إلى اللغة العربية، وهو الكتاب الذي يهمنا في هذه الدراسة[١]. ورحلته إلى بلاد الحبشة نشرت عام (١٨٣٨م).

يقع كتاب بوركهارت (رحلات إلى شبه الجزيرة العربية) في النسخة العربية، في حوالي (٤٠٠) صفحة من القطع المتوسط جميعها تعكس صوراً تاريخية وحضارية شاهدها هذا الرحالة الأوروبي في مدن وقرى وطرقات الحجاز، وقد أفرد لحاضرة الطائف وما جاورها أكثر من ثلاثين صفحة، حيث نزل في جدة، ومنها إلى مكة المكرمة ثم صعد إلى الطائف واستقر فيها عدة أيام، وذكر بعض معالم الطائف الجغرافية، ومقابلته محمد علي باشا (حاكم مصر) الذي كان يقيم وقت زيارة هذا الرحالة للحجاز في الطائف، كما ذكر بعض أعلام الحجاز الذين كانوا قريباً من الباشا، مثل: بعض مستشاريه، وقاضي مكة المكرمة[٢]، ودون شيئاً من الحوارات واللقاءات التي حدثت بينه وبين الباشا محمد علي، ثم دون بعض مشاهداته عن الطريق التي تخرج من الطائف إلى مكة عبر جبال وادي المحرم والهدا[٣].

ويعترف بوركهارت بعدم حصوله على تفصيلات وافية عن مدينة الطائف، لأنه لم يتنقل في أرجائها، ولم يخالط عموم سكانها، إلا أنه يذكر بعضاً مما شاهده، فيقول: "تقع مدينة الطائف وسط سهل رملي يبلغ محيطه نحو أربع ساعات من المشي، ويكسوه نوع من النبات، وتطوقه جبال منخفضة تدعى جبال غزوان، وهذه الجبال عبارة عن سلسلة تابعة لسلسلة الجبال الكبيرة، وهي تمتد لأربع أو خمس ساعات بعيداً إلى الشرق. ولمدينة الطائف شكل مربع غير منتظم، ويبلغ محيطها خمس وثلاثون دقيقة من المشي السريع، وهي محاطة بجدار وخندق، وللجدار ثلاث بوابات، وتحميه عدة

---

(١) هذا الجزء عنوانه: رحلة في بلاد العرب (الحملة المصرية على عسير / ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م). قام بترجمته الدكتور محمد بن عبدالله آل زلفه (الرياض: مطابع واعلانات الشريف، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م) (ويقع في ٣٥٨ صفحة من القطع المتوسط)، انظر أيضاً جاكلين بيرين. اكتشاف جزيرة العرب، خمسة قرون من المغامرة والعلم. نقله إلى العربية قدري قلعجي، وقدم له الشيخ حمد الجاسر (بيروت: دار الكاتب العربي، د.ت)، ص ٢٥٣.

(٢) كان محمد علي باشا في حرب طاحنة مع حكام الدولة السعودية الأولى، وكان أثناء زيارة هذا الرحالة للحجاز يسكن الطائف، وأحياناً يتنقل ما بين مكة وجدة والطائف.

(٣) للمزيد انظر بوركهارت، رحلات إلى شبه الجزيرة العربية (النسخة العربية) ص ٥٣ وما بعدها. قضى الرحالة بوركهارت عدة شهور في الجزيرة العربية من عامي (١٨١٤-١٨١٥م)، والمدن التي زارها هي: جدة، والطائف، ومكة، والمدينة، وينبع. للمزيد انظر، كتابه (الرحلات)، ص ١٤ وما بعدها.

ابـراج. وفي الجهـة الغربيةٍ داخـل المدينة، يقف القصـر على مرتفع صـخري... وعلى الرغم من كونه الآن مهدماً، فقد جعل محمد على منه مركزه الرئيسي. ومنازل المدينة في معظمها صـغيرة، لكنها متقنة البناء، وهي من الحجر..."[١]. ويضيف هذا الرحالة وصـفاً لمدينة الطائف عندٍ زيارتها، فيقول: "يمكن القـول: بأن مدينة الطائف في حالة شـبه مهدمـة، إلاّ أن عدداً قليـلاً فقط من المنازل في حالة جيـدة ، فقد دمر الوهابيون العديد من الأبنية حين اسـتولوا على المدينة سـنة (١٨٠٢م)، ... وقد رأيت مسـجدين صـغيرين، أفضـلها هو للهنود... وتتزود مدينة الطائف بالمياه من بئرين تقع إحداهما ضـمن الجدران، والأخرى مقابل البوابات، وتشـتهر المدينـة بحدائقها الجميلة... ولم أقم بزيارة أي من الحدائق، وفي بعضـها مقصـورات أو خيم كبيرة حيث يقضـي سكان الطائف سـاعات المرح والبهجـة، وأبرزها وادي المثناة، ووادي السـلامة، وتروي الآبار والجداول التي تنزل من الجبال تلك الحدائق. ونجد هنا العديد من أشجار الفاكهة مع حقول من القمح والشـعير، والفاكهة التي تذوقتها في الطائف العنب، والتين، والرمان، والسـفرجل. كما تشـتهر حدائق الطائف بوفرة وكثرة ورودها التي يتم نقلها، كالعنب، إلى أنحاء الحجاز كلها[٢]... وسـكان الطائف الأصـليون هم عرب من قبيلة ثقيف[٣].. وقد استقر فيها بعض المكيين، إلاّ أن الأغلبية الساحقة من الأجانب هم من أصل هندي، وهؤلاء ما زالوا يحافظون على زي المسلم الهندي وعاداته على الرغم أنهم ولدوا في شبه الجزيرة العربية، وبعضهم تجار، والأغلبية الساحقة منهم تجار أدوية[٤]... وأعتقد أنه لا يوجد تجار جملة في الطائف، وقد أحصـيت نحـو (٥٠) متجراً في مجموعها. وكانت هـذه المدينة، قبل دخول الوهابيين إليها، مدينةٍ تجارية يأتي إليها أهل الجبال بقافلات القمح والشـعير، وكانت المدينـة مركزاً تجارياً لبيع القهوة التي تصـدر إليها من جبال اليمن[٥]... والمسـتوردات الوحيدة من الداخل في الوقت الحاضر، هي التمر الذي يأتي بـه عرب عتيبة من مزارع الفاكهة العديدة في منطقتهم[٦]، وتكتظ الشـوارع الرئيسـية بالمتسـولين وبينهـم عـدد كبير من الهنـود... وكانت قوافل المؤن تصـل كل أسـبوع إلى الطائف، غير أن النقص في الجمال لم يكن يسـمح باسـتيراد كاف من الساحل لخفض أسـعار الطعام، بالرغم من أن عامة الشـعب كانت تقتات بشكل رئيسي من التمر[٧]...

---

(١) بوركهارت، رحلات، ص ٧٥.
(٢) المصدر نفسه، ص ٧٦.
(٣) المصدر نفسه، ص ٧٦.
(٤) المصدر نفسه، ص ٧٦-٧٧.
(٥) المصدر نفسه، ص ٧٧.
(٦) المصدر نفسه، ص ٧٧. والتمور كانت وما زالت تصدر من بيشة إلى أسواق الطائف وغيرها.
(٧) المصدر نفسه، ص ٧٧.

كما استقر في الطائف العديد من العائلات الشريفة، ويبدو أن نمط حياتهم، وزيهم، وعاداتهم هي تلك نفسها التي في مكة، إلاّ أني لم أحصل سوى على القليل من فرص الملاحظة في هذا الموضوع"[١].

في (٢٩/شوال/١٢٥٧هـ الموافق ١٤/ديسمبر/١٨٤١م) سافر الرحالة ليون روش من المدينة إلى مكة، وعند وصوله مكة جاءته موافقة الشريف محمد بن عون على استقباله في الطائف، فخرج ورفاقه عن طريق عرفة وعقبة الهدا حتى قابل الشريف في الطائف، ولم يذكر معلومات ذات قيمة علمية كبيرة، عن الطريق التي سلكها، إلاّ أنه أشار أن وادياً قريباً من الطائف تزرع فيه القهوة[٢]، وربما أن ملاحظاته غير دقيقة فالقهوة لا تزرع في الطائف. ويصف بعض مدن الحجاز التي زارها وشاهد معالمها مثل: ينبع البحر، وبدر، والمدينة المنورة، ومكة المكرمة[٣]، وعن مدينة الطائف التي أقام فيها عند شريف الحجاز، محمد بن عون، تسعة أيام، فهو يذكر نفس المعلومات التي أوردها بوركهارت عن جغرافية وموقع الطائف، وأطوالها، وأبوابها[٤]. وذكر أن شوارع الطائف واسعة، ومنازلها في حالة سيئة، ويقول: "لا تثير المباني الدينية في الطائف أي اهتمام خاص سوى مسجد ابن عباس الذي تغطي ضريحه قبة رشيقة"[٥].

ويشير إلى الحدائق الجميلة والمزارع الجيدة في الطائف، وبعض البساتين التي توجد عند أسفل التلال، ويذكر أن الشريف أعطاه رخصة لزيارة بعض البساتين في الطائف فوجدها مليئة بالأشجار المثمرة من كل الأنواع، وبها الورود على اختلاف أنواعها[٦].

أما الرحالة موريس تاميزيه فلا يذكر شيئاً عن الطائف، لأنه خرج مع الجيش العثماني الذي يتجه إلى غزو بلاد عسير، مع أن هذا الجيش مر بمدينة الطائف حتى وادي لية الذي أقام فيه ليلة للراحة والاستعداد، وعند مرور تاميزيه من الطائف قال: "شاهدنا منازل شريف مكة الريفية، تظهر أمام هضبات متكونة من صخور متكاثرة وبعض الأشجار التي ما زالت تعد من الحدود الفعلية لمدينة الطائف"[٧]. أما وادي لية

---

(١) المصدر نفسه، ص ٧٧. للمزيد عن وصف هذا الرحالة لأهل مكة وأعرافهم وعاداتهم، انظر، المصدر نفسه، ص٨٩ وما بعدها.

(٢) انظر بلقاسم سعد الله «رحلة ليون روش» (١٨٤١-١٨٤٢م)»، ص ٢٥٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٦٠-٢٦٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٦٦، انظر أيضاً بوركهارت، رحلات، ص ٧٥٢ وما بعدها.

(٥) بلقاسم سعد الله. "رحلة ليون روش..."، ص ٢٦٦.

(٦) المرجع نفسه، ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٧) انظر موريس تاميزية، رحلة في بلاد العرب (الحملة المصرية على عسير)، ترجمة محمد بن زلفة، ص ٥٧.

الـذي يقع جنوب مدينة الطائف فيحيط به جبال جرداء، لا يرى فيها إلاّ شـجر الطلح، وأشـار إلى توفر المياه والمـزارع في هذا الوادي[١]، ويذكر أن بعض الشـيوخ والأعيان في هذا الوادي وما جاوره قدموا على أحمد باشـا قائد الحملة للسـلام عليه وتقديم الولاء والطاعة له ولدولته (الدولة العثمانية)، كما أن القائد نفسـه أحسـن استقبالهم، ووزع عليهـم بعض الهدايا من البسـة وغيرهـا[٢]. وذكر تاميزيه أن سـكان هذه البلاد ومن جاورهم جنوباً من البدو، وأشارً إلى نماذج من ألبسة رجالهم وأطفالهم ونسائهم[٣].

١٢- شارل ديدييه، وأيوب صبري باشا، ومحمد صادق باشا، والقاري (ق١٣-ق١٤هـ/ق١٩-ق٢٠م):

شـارل ديدييـه (Charles Didier) أديب وشـاعر وصـحفي سويسـري من أصـل فرنسـي، ولد في جنيف عام (١٢٢٠هـ/١٨٠٥م)، درس ديدييه في جنيف القانون، وعلم النبات، والرياضيات، وعاد إلى باريس، واكتشف ميله إلى الرحلات، ونشر أول قصائده الشـعرية في جنيـف عام (١٨٢٥م)، ثـم ذهب في مهمات رسـمية لحكومته إلى كل من بولنـدا، وألمانيـا، ثم إيطاليا، ثـم قام برحلات عديـدة إلى كل من اسـبانيا، والمغرب، والجزيرة العربية، ومصـر، وقد أصـيب في آخر حياته بالإجهـاد والتعب ثم العمى. وله مؤلفات عديدة، منها، من قصـص الرحلات، وأشـهرها: سـنة في أسـبانيا. (طبعه في بروكسـل عـام ١٨٣٧م)، وحملة علـى رومـا. (١٨٤٢م)، وجولة في المغـرب (١٨٤٤م)، ورحلتـه إلى الحجـاز، وهـو الكتاب الـذي يهمنا في هذا البحث، صـدر بالفرنسـية عام (١٨٥٧م)، وترجمه إلى العربية محمد خير البقاعي، تحت عنوان: رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن (١٩م)، والكتاب مع مقدمة المترجم والفهارس يقع في (٤٠٠) صـفحة[٤]. وصف ديدييه مسار رحلته من القاهرة إلى السـويس، وجبل سيناء، ومدينة الطور، ثم تحدث عن البحر الأحمر، وينبع، وجدة، والطائف، التي قابل فيها شريف مكة المكرمة عبدالمطلب بن غالب، ثم وصف طريق جدة الطائف، والطائف جدة لأنه عاد من طريق أخرى تختلف عن طريق الذهاب، وأشـار إلى مغادرة جدة إلى سواكن عبر البحر الأحمر، وأفرد فصلاً عن الأشراف والوهابيين وعلاقاتهم السياسية والعسكرية[٥].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٨-٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٨-٦٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٦١-٦٣.

(٤) شارل ديدييه، رحلة إلى الحجاز (ترجمة محمد خير البقاعي (الرياض: دار الفيصل الثقافية،١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص ١٢ وما بعدها. وهناك مؤلفات أخرى عديدة لهذا المستشرق معظمها ما زالت باللغة الفرنسية.

(٥) انظر شارل ديدييه، رحلة إلى الحجاز، ص٦١، وما بعدها.

أما أيوب صبري باشا، فقد ولد بتساليا في تركيا، ونشأ وترعرع في القواعد البحرية حتى أصبح أميرالاياً، ومكث في مكة والمدينة مدة طويلة، ثم رقي بعد عودته من بلاد الحجاز إلى أمير اللواء، وترأس قسم المحاسبات البحرية، ثم تولى التدريس في مدرسة البحرية في استانبول[١]، وله مصنفات عديدة في الشعر، والتاريخ، ومنها كتبه: مرآة مكة، ومرآة المدينة، ومرآة جزيرة العرب، التي تعد كتاباً متكاملاً عن الجزيرة العربية. وهذا الكتاب اشتهر في الأوساط التركية في عهد السلطان عبدالحميد، وهو كتاب علمي تحرى صاحبه فيه الدقة والمصداقية، واستند فيه على مصادر عربية وتركية وفارسية أصلية، مدعماً ذلك بمشاهداته وملاحظاته، وتوفي هذا العالم بمدينة استانبول سنة (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م)[٢].

ومحمد صادق باشا، ولد بالقاهرة سنة (١٢٣٨هـ/١٨٢٢م)، وتوفي بها سنة (١٣٢٠هـ/١٩٠٢م)، وهو من أعضاء الجمعية الجغرافية، تلقى تعليمه في القاهرة وباريس، ورحل إلى الحجاز، وهو أول من أخذ قياسات دقيقة لقبر النبي (ﷺ)، ألف كتاباً أسماه: دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج، وهو مكون من عدة كتب سبق تأليفها عن رحلاته إلى الأماكن المقدسة مسؤولاً وحاجاً[٣]. ولم أستطع الاطلاع على هذا الكتاب، أما المكتوب عن مدينة الطائف فقد اطلعت عليه مقتبساً في كتاب اللواء إبراهيم رفعت باشا، الموسوم: بـ مرآة الحرمين (أو) الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية[٤].

أما القاري، فقد كتب في التاريخ، وهو الشيخ عبدالحفيظ بن الشيخ عثمان بن محمد القاري الإدريسي من علماء الطائف المتأخرين، ولد بالطائف، ودرس على بعض علمائها، ثم رحل إلى الأستانة، ودرس على يد بعض العلماء هناك، واجتاز العالمية

---

(١) هناك أمثال أيوب صبري باشا رحالة وأصحاب مدونات من العثمانيين والمصريين وغيرهم الذين جاءوا إلى جزيرة العرب خلال عصر الإمبراطورية العثمانية ودونوا بعض مشاهداتهم وتجاربهم وملاحظاتهم، وكثير منها لم يصلنا، وربما ضاع بعضها، وأخرى ما زالت مكتوبة باللغة التركية العثمانية، وموجودة في بعض مكتبات أو أراشيف متعددة في مصر وتركيا وغيرها.

(٢) انظر أيوب صبري باشا. مرآة جزيرة العرب. ترجمة وتقديم وتعليق أحمد فؤاد متولي، والصفصاف في أحمد المرسي (الرياض: دار الرياض للنشر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، جـ١، ص ٣٠ وما بعدها.

(٣) انظر الزركلي، جـ٦، ص ١٦١.

(٤) الكتاب يقع في جزئين، وما دون عن الطائف يوجد في الجزء الثاني، ص ٣٤٤-٣٥٣. واللواء إبراهيم رفعت ولد في القاهرة عام (١٨٥٥م)، وعمل في الجيش المصري في عهد الخديوي اسماعيل، وعين أميراً لركب الحج المصري، وحج مرات عديدة، وكتابه المذكور أعلاه يعد وصفاً دقيقاً لرحلة الحج التي سار فيها عام (١٣١٨هـ/١٩٠١م).

أمام لجنة من العلماء المتخصصين، ثم عاد إلى الطائف. وله رسالة مختصرة مدونة من أربعة تواريخ، لم يزد فيها على ما كتب سابقوه، إلا بقوله "وقد اندرس أكثر المآثر والمزارات"، ومنها نسخة مخطوطة في سبع ورقات بمكتبة الحرم المكي الشريف، وتوفي سنة (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) [١].

ويتحدث شارل ديدييه في ثلاثة فصول من كتابه عن إقامته في الطائف، والطريق التي سلكها من جدة إلى الطائف، ثم من الطائف إلى جدة[٢]. ودون بعض المعالم الجغرافية التي شاهدها قريباً من هذين الطريقين، واشار إلى أماكن الاستيطان، والقرى والسكان الذين رآهم يسكنون قريباً من هذه المسالك، وذكر أسماء أعلام من أهل الحجاز كانوا يرافقونه في تلك الرحلة[٣]. وعند وصوله الطائف يسهب في الحديث عن حسن الاستقبال الذي لقيه من الشريف الأكبر عبدالمطلب بن غالب فقد أمر بإعداد السكن والخدم الذين يقومون على خدمته ورفاقه، وعند زيارة الشريف في منزله وسط الطائف ذكر شيئاً من هيئة قصره، والخدم والجواري والعبيد الذين شاهدهم يعملون في ذلك القصر[٤]، كما تحدث شارل ديدييه مع الشريف في قضايا سياسية يعيشها العالم آنذاك، وقد سنحت لهذا الرحالة القيام بجولة في بعض أجزاء الطائف، وذكر شيئاً من بعض الآثار التي شاهدها في مسجد عبدالله بن عباس وأمكنة أخرى من الطائف[٥]، ولم يغفل عن ذكر بعض الألبسة التي كان يرتديها الشريف، وبعض الرجال من حوله، أو بعض البدو، أو العبيد في محيط قصر الشريف أو أمكنة أخرى من الطائف[٦]، وذكر بعض الأبنية في الطائف، مثل المنازل وطوابقها ومرافقها ومواد بنائها[٧]، ويصف هذا الرحالة وجبة العشاء التي قدمها لهم الشريف أثناء وصولهم الطائف، فيقول: "كان العشاء يزخر بأنواع الأطعمة المحلية، جاء أولاً الخروف الذي يعد من عادات الضيافة، كان محشواً بالرز، واللوز والفستق، ثم تلته أوراق العنب المحشوة، والكباب، وهو قطع من اللحم مربعة ومشوية، وعصائر الورد المخثرة المطبوخة مع صدور الفراريج أو الخراف، ثم أتت بعد ذلك تشكيلة منوعة من الحلويات تسمى

(١) للمزيد انظر، الزركلي، جـ٣، ص ٢٧٩، محمد سعيد كمال " قطر الطائف ومؤرخوه"، جـ٢، ص ٢٧٩.
(٢) شارل ديدييه، الرحلة إلى الحجاز، ص ٢٦٥-٣٥٦.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٥-٢٩٤، ٣٣١-٣٥٦.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٩٥-٢٩٩، ٣٠٦، ٣٠٨.
(٥) المصدر نفسه، ص٣١٤، ٣١٨، ٣١٩.
(٦) المصدر نفسه، ص ٢٩٩ وما بعدها.
(٧) المصدر نفسه، ص ٣٠٨ وما بعدها.

(الفطير). ناهيك عن الأشياء الأخرى العجيبة، كان كل ذلك متبلاً بالأعشاب العطرية المقطعة في الخل، وله صلصة بالكريمة المطيبة بالتوابل..."[١].

ويذكر صوراً من تجارات الطائف وأسواقها، ودور أهل الطائف في تلك النشاطات الاقتصادية، فقال: "يسكن الطائف بدو قبيلة ثقيف، باستثناء بعض الأسر القليلة، الغريبة، هندية أو غيرها، واصبح بدو ثقيف حضريين، بل صناعاً وتجاراً، إنهم يصنعون بأنفسهم غالبية الأشياء الضرورية للحياة العامة[٢]، كما يصنعون أسلحتهم وأحزمتهم وحمالات سيوفهم الجلدية، وسجاد غير متقن الصنع، مصنوع من وبر الجمال، والمجوهرات التي تتزين بها نساؤهم[٣]... أما المحال التجارية فهي بائسة، ويديرها الرجال كما هو الحال في الشرق كله، ولا أذكر أنني لمحت امرأة واحدة خلال إقامتي في الطائف، مع أن الفرصة سنحت لي لرؤية عدد كبير من الناس عندما صادف وجودي فيها أحد أيام السوق[٤]، وقد كان كل شيء هناك تقريباً يباع بالمزاد[٥].

أما الرحالة أيوب صبري فقد قدم وصفاً لا بأس به لمدينة الطائف، وما بها من آثار مهمة، ولكنه سرد تاريخي عاماً أكثر منه وصفاً علمياً يعكس ما آل إليه العمران والتمدن في تلك الفترة. كما تحدث عن مسجد عداس، وذكر مسجداً آخراً جديداً سماه: (مسجد النملة[٦]. أما عبدالحفيظ القاري، فلم يذكر هو الآخر معلومات كثيرة عن الطائف، وإنما أشار في رسالته عن هذه المدينة سبب تسمية الطائف، وأورد الأحاديث النبوية المتصلة بها، وحصار الرسول (ﷺ) للطائف، وأسماء المدفونين في المسجد من رجالات السياسة الذين توفوا في أواخر القرن (١٣هـ) وأوائل القرن (١٤هـ)، ثم تحدث عن الآثار التي تتصل بأحداث الفترة الإسلامية المبكرة، كما انفرد القاري بإيراد أسماء

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩٧.

(٢) الدارس لأحوال الناس الاجتماعية والاقتصادية في عموم الجزيرة العربية خلال القرون الماضية سيجد أن عامة الرجال والنساء في القرى والبوادي والحواضر يقومون بخدمة أنفسهم في خياطة ملابسهم، وصناعة ما يحتاجونه في مزارعهم، ورعيهم، وصيدهم، وتجاراتهم. نعم كان هناك صناع مهرة من حدادين، ونجارين، وخياطين، وغيرهم، فهم يعلمون أعمالهم بأجور تدفع لهم، لكن هناك أفراد وأسر يعملون لأنفسهم ما يحتاجون ويخدمهم في حياتهم اليومية.

(٣) شارل ديدييه رحلة إلى الحجاز، ص ٣١٢-٣١٣.

(٤) تغير الحال اليوم فالأسواق اليوم أصبحت المجال الأهم والرئيسي للنساء، فترى معظم المتسوقين من النساء، وكثيراً من الباعة في محلات الأسواق أصبحن من جنس النساء أيضاً.

(٥) شارل ديدييه، الرحلة، ص ٣١٣.

(٦) انظر: أيوب صبري باشا، مرآة جزيرة العرب، جـ١، ص٣٠ وما بعدها. وتشتهر الطائف بالمساجد القديمة، ونأمل أن نرى باحثاً يدرس تاريخ المساجد في هذه المدينة الحجازية خلال القرون الماضية المتأخرة، ومن يفعل ذلك فإنه سوف يطلعنا على معلومات وتفصيلات قيمة تصب في خدمة هذا الموضوع.

خمسة مساجد جديدة بنيت في الطائف على الأرجح قبل عصره، أو في زمنه[١].

وينقل اللواء إبراهيم رفعت باشا بعض مدونات الرحالة محمد صادق باشا، فيذكر أنه خرج من مكة مع بعض الرفاق من الأشراف وغيرهم متجهين إلى الطائف في يوم الثلاثاء غرة رمضان (١٣٠٤هـ/١٨٨٣م)، واستغرقت رحلتهم حوالي (٣٦) ساعة عبر طريق الزيمة ووادي السيل الكبير (قرن المنازل)، وأقام في الطائف عدة أيام، ثم عاد إلى مكة عن طريق عقبة الهدا وقد استغرق السير ما بين الطائف ومكة حوالي (١٨) ساعة[٢]. ويذكر معلومات متكررة في عدد من المصادر والمراجع مثل طبيعة مناخ الطائف، والأصنام التي توجد بها، مثل، صنم اللات، الذي هدم في عهد الرسول (ﷺ) ويشير إلى بعض المعالم الجغرافية على قارعة الطريقين اللتين سلكهما في ذهابه وإيابه من وإلى الطائف[٣].

ويذكر أيضاً بعض مشاهداته عن مدينة الطائف، وما حولها، فيقول: "الطائف صحراء متسعة تحيط بها جبال صغيرة غير منتظمة، أرضها صالحها للزراعة، لأنها تتكون من طين ورمل شديد النعومة، ويقال للطائف أيضاً وادي العباس... وبلدة الطائف يحيط بها سور من اللبن بناه الشريف غالب سنة (١٢١٤هـ)، وداخل هذا السور (٤٠٠) منزل و(٢٠٠) حانوت، وستة جوامع[٤]، أشهرها جامع عبدالله بن عباس...وبها أيضاً سبعة مساجد، ودائرة للحكومة، ومنزل للمدير، ومستشفى للجند، وحمام، وقلعة لحبس المجرمين، وعدد سكانها (٢٠٠٠) نفس[٥]، وبيوتها في أكثر الأشهر خالية من السكان إلاّ القليل، ولا تعمر إلاّ في الصيف حيث يؤمها المكيون فراراً من حر مكة وقيظها[٦]، وبجوار الطائف جناتٍ مثمرةٍ، وعيون جارية، وقرى آهلة، ويوجد خارجها بعيداً عن سورها نحو (٢٥) منزلاً، بعيداً بعضها عن بعض، ومحاطة بالأشجار داخل الأسوار، والمنزل منها يتركب من طبقتين في كل طبقة حجرات ثلاث نفذ بعضها إلى بعض، وهذه المنازل لأغنياء مكة خصوصاً أميرها والشيخ الشيبي"[٧].

ويذكر من فواكه الطائف عنبها لا سيما النوع المعروف بعنب (الجاووش)، والخوخ، والرمان، والتين، والبرشومي، والتوت الشامي، والبرقوق، والبلح، والليمون، وأنواع

(١) للمزيد انظر، الزركلي، الأعلام، جـ٣، ص ٢٧٩، محمد سعيد كمال «قطر الطائف ومؤرخوه»، جـ٢، ص ٢٧٩.
(٢) انظر اللواء إبراهيم رفعت باشا. مرآة الحرمين، جـ١، ص ٣٤٤-٣٥٣.
(٣) المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٤٤ وما بعدها.
(٤) المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٤٦.
(٥) المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٤٦.
(٦) المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٤٦.
(٧) المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٤٦.

الخضـروات[١]. ويتحدث عـن عادة الختان عنـد أهل الطائف حيث كانـت جائزة فلا يكتفى بختان السنة وإنما يسلخ جلد القضيب ومعظم جلد العانة، ووصفها بالوحشية[٢].

١٤- الحضـراوي، وداوتـي، وسـنوك، والدهلـوي، (ق١٣- ق١٤هـ/ ق١٩- ق٢٠م):

الحضـراوي: هـو أحمـد بـن محمد بـن أحمد الحضـراوي المكـي الهاشـمي، ولد بالإسـكندرية (١٢٥٢هـ/١٨٣٦م)، وانتقل مع والده إلى مكة المكرمة صـغيراً، فنشـأ بها وأخذ عن علمائها، وتوفي سـنة (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م)، وله كتب عديدة، والف عن الطائف كتاباً سماه: اللطائف في تاريخ الطائف، منه نسخة مخطوطة بمكتبة الحرم المكي الشريف، برقم (٢٣) تاريخ، ومعظم معلومات هذا الكتاب منقولة من كتاب حسن العجمي، وأشار في بعض أبواب الكتاب إلى بعض الآثار العمرانية الإسلامية في الطائف[٣].

أمـا داوتـي (Doughty)، فهو رحالـة انجليزي يدعى تشـارلز مونتيجيـو داوتي، ولـد في بريطانيـا عام (١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م)، من عائلة إقطاعية اشـتغل معظم أبنائها في البحريـة البريطانية والكنيسـة الأنجليكانية، التحق داوتـي بجامعة كمبردج ودرس الجيولوجيـا، ثم درس لغات أخـرى عديدة مثـل: الهولندية، والدنماركيـة، كما درس بعض الوقـت في جامعة أكسـفورد، ثم رحـل إلى اليونان، ثم مصـر التي وصـلها عام (١٢٩٢هـ/١٨٧٥م)، ثم سـار عبر صحراء سـيناء حتى وصل مدينة البتراء في الأردن، وسمع عن مدائن صالح، وعندئذ تنكر في زي رجل سوري وأطلق على نفسه اسم (خليل)، ثم انضـم إلى قافلـة حج ايرانيـة، وتظاهر أنه طبيـب، وفي عـام (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م) وصـل إلى مدائـن صـالح، ومـر بمدينـة تيمـاء، وسـار إلى مدينـة حائل، ثـم خيبر، ثـم مدينـة عنيـزة، ثـم ذهـب إلى الطائـف، ومنهـا إلى جـدة التـي وصـلها عـام (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م)، وبعد عشـر سـنوات ظهر كتابه الموسـوم بـ: رحلات في الصحراء العربيـة (Travels In Arabia Deserta)، في جزئـين. والملاحظ علـى هذا الكتاب، أن

---

(١) المصدر نفسه، جت١، ص ٢٤٧.

(٢) المصـدر نفسـه، جـ١، ص ٢٤٧-٢٤٨. وهذه العادة مشـهورة عند سـكان الجنوب مثل بلاد عسـير وما جاورها، ويبـدو أن أهـل الطائف كانوا يمارسـونها أيضـاً، وقد ذكرها أكثر من مصـدر ورحاله جاءوا إلى بلاد عسـير وجـازان خلال القرون الماضـية المتأخرة. للمزيد انظـر، محمد عمر رفيع. في ربوع عسـير (ذكريات وتاريخ). (الطائف: مكتبة المعارف، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م)، ص ٨٤-٨٧، غيثان بن علي بن جريس. عسـير (دراسـة تاريخية في الحيـاة الاجتماعية والاقتصـادية (١١٠٠-١٤٠٠هـ/١٦٨٨-١٩٨٠م) (جدة: دار البلاد للطباعة والنشـر، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، ص ٨٥-٨٧.

(٣) للمزيد انظر: الزركلي، الأعلام، جـ١، ص ٢٤٩، محمد سعيد كمال « قطر الطائف ومؤرخوه»، جـ٢، ص ١١٢-١١٣.

داوتي اهتم بالأسلوب أكثر من اهتمامه بجمع المادة العلمية، وقد توفي في بريطانيا عام (١٣٤٥هـ/١٩٢٦م) [١].

والملاحظ على هذا الرحالة أنه لم يقدم معلومات ذات قيمة فيما يتصل بالطائف، اللهم إلاّ اشارات موجزة في وصف الطريق المؤدية من جدة إلى الطائف، كما ذكر أنه شاهد بعض العمال على مقربة من الطائف وهم يقومون بتكسير الصخور من الجبال لاستخدامها في بناء بعض الأبنية والمرافق المعمارية، وذكر أنه رأى العديد من المنازل والأكواخ البدائية، والمنازل الجيدة كانت معمولة بالجص، أما الشوارع والأزقة في الطائف فكانت في حالة سيئة[٢].

أما المؤرخ والرحالة سنوك، فهو: الدكتور كرستيان سنوك هورخرونيه، ولد في هولندا عام (١٢٧٤هـ/١٨٥٧م)، ومات عام (١٣٥٥هـ/١٩٣٦م) عن عمر يناهز الحادية والثمانين عاما[٣]. التحق بجامعة ليدن لدراسة اللاهوت عام (١٢٩١هـ/١٨٧٤م)، وبعد سنة (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م)، كرس نفسه لدراسة اللغات والآداب السامية، وكان موضوع رسالته للدكتوراه في عام (١٢٩٨هـ/١٨٨٠م): الحج عند المسلمين وأهميته في الدين الإسلامي. وفي عام (١٢٩٨-١٢٩٩هـ/١٨٨٠-١٨٨١م) عمل تحت إشراف المستشرق الألماني نولدكه، وفي السنة التي تليها عين محاضراً في الدراسات الاسلامية في كلية تدريب الموظفين لجزء الهند الشرقية التابعة لجامعة ليدن. سافر سنوك إلى بلدان عديدة من الشرق، وأخيراً قرر أن يدعي الإسلام، ويغير اسمه إلى (عبدالغفار)، ثم ذهب إلى جدة، ومنها دخل مكة عام (١٣٠٣هـ/١٨٨٥م)، وأقام فيها بين الجاليات الجاوية أكثر من ستة أشهر، وعلى إثر هذه الإقامة ألف كتابه الذي أسماه (مكة) في جزئين، وقد كتبه باللغة الألمانية، وطبع في مدينة لاهاي بين عامي (١٣٠٦-١٣٠٧هـ/١٨٨٨-١٨٨٩م)، ومن أعماله الأخرى المرتبطة بهذه الرحلة أنه جمع في أثناء وجوده في مكة عدداً كبيراً من الأمثال العربية والكلمات الدارجة ونشرها مع ترجمتها وتفسيرها. ويمكن الرجوع إلى محتويات الجزئين التي أصدرها، والتي قامت دارة الملك عبدالعزيز بترجمتها وطباعتها ونشرها عام (١٤١٩هـ/١٩٩٩م). وفي الجزء الأول: دراسة تاريخية حضارية لمكة منذ عهد الرسول (ﷺ) إلى القرن (١٣هـ/١٩م). أما الجزء الثاني: فهو خلاصة

---

(١) للمزيد انظر، روبن بدول، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ص ٧٧-٨٩، عبدالعزيز صالح، الرحلات والكشوف الأثرية، ص٤٣ وما بعدها.

(٢) للمزيد انظر: Charles m.Doughty. Travles in Arabia Deserta (New Yourk, 1979), vol.2, pp522-551.

(٣) انظر ك. سنوك هورخرونيه. صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن (١٣هـ). ترجمة محمد محمود السرياني، ومعراج مرزا (مكة المكرمة، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤١١هـ/١٩٩٠م)، جـ٢، ص ٨ وما بعدها.

مشاهداته في مكة أثناء إقامته فيها، وقد ذكر محاور عديدة في هذا الجزء منها: حياة العائلة وبناء الأسرة، وصور من الحياة العلمية في الحرم المكي، وصور أخرى من حياة الناس العامة، وطبقات السكان وأجناسهم في مكة[١].

لم يذهب سنوك إلى الطائف، ولم يذكر تاريخها وحضارتها في مصنفه، لكنه فصل الحديث عن سكان مكة، وذكر منهم البدو أو ما سماهم (اليمنيون)، ويقصد بذلك أهل الطائف ومن جاورهم جنوباً من أهل السراة، فقال: "يأتي من مناطق الحجاز إلى مكة وخاصة من المنطقة الواقعة بين الطائف ووادي يبة بعض البدو الفقراء الذين يعملون كبوابين في بيوت مكة، حيث يسكن هؤلاء عند مدخل الدور للقيام بالحراسة، وهذا النوع من العمل مهم جداً في أوقات الحج حيث تكون هذه البيوت مليئة بأمتعة الحجاج، وهؤلاء عندهم أمانة للقيامة بهذا النوع من العمل، ولهذا يفضلهم سكان مكة أكثر من غيرهم"[٢]. ويصف هذا الرحالة مواطن هؤلاء البدو في مكة وما جاورها، وكيف كانوا يجلبون بعض السلع من بلادهم في السروات، ولديهم بعض الجمال التي يؤجرونها في السفر ونقل البضائع، فقال: "... يعيش الفقراء منهم في أكواخ، بينما يعيش الموسرون في بيوت بسيطة، ويقوم هؤلاء بإيجار جمالهم بين جدة والطائف والمدينة، كما يقومون بجلب الأغنام والحليب والزبد والتمور من مناطقهم إلى المدينة المقدسة، ويطلق على هؤلاء اسم (المكاريين)"[٣].

أما الدهلوي، فهو: عبدالستار بن عبدالوهاب بن خدايا بن عظيم حسين يار المباركشاهوي البكري الصديقي الحنفي أبو الفيض وابو الإسعاد، ولد في مكة عام

---

(١) انظر، سنوك هورخرونيه. صفحات من تاريخ مكة. نقله إلى العربية علي عودة الشيوخ (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) (جزءان)، انظر أيضاً: معراج نواب مرزا، ومحمد محمود السرياني «دوافع رحلة سنوك هورخرونيه وقيمتها العلمية بوصفها مصدراً من مصادر تاريخ شبه الجزيرة العربية. الرحلات في شبه الجزيرة العربية. (الرياض: دار الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، جـ٢، ص٦٠٧-٦٣٥.

(٢) انظر كتاب سنوك، صفحات من تاريخ مكة، ترجمة محمد السرياني، ومعراج مرزا، جـ٢، ص ٥٦-٥٧. ويذكر لنا بعض الآباء والأجداد في مناطق عسير والباحة أنهم كانوا فعلاً يذهبون إلى مكة للخدمة في بيوت المكيين، وأكثر الأعمال التي كانوا يمارسونها نقل الأغراض من مكان لآخر، وحراسة المنازل. المصدر: هذا ما سمعه الباحث من أكثر من راويه في أبها والنماص خلال العقود الأولى من القرن (١٤هـ/٢٠م).

(٣) المكاري: هو الذي يؤجر نفسه وجمله أو وسيلة نقله لنقل المسافرين والبضائع وغيرها. انظر، سنوك، صفحات من تاريخ مكة، ترجمة محمد السرياني، ومعراج مرزا جـ٢، ص٥٧. ونجد بعض الرحالة السابقين مثل ابن جبير وابن بطوطة وغيرهما، وأيضاً بعض الوثائق تذكر أن أهل الطائف وعموم بلاد السروات كانوا ينقلوا البضائع على جمالهم إلى مكة، وكانوا يصدرون الكثير من محاصيلهم الزراعية ومواشيهم إلى أسواق الحجاز. كما أن بعض الرواة في القرن (١٤هـ/٢٠م) ذكروا أنهم كانوا يذهبون إلى مكة ومدن الحجاز الأخرى لنقل السلع والمسافرين من مكان لآخر.

(١٢٨٦هـ/١٨٦٩م)، وتوفي بها سنة (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م)، درس بالحرم المكي الشريف، وهو عالم بالتراجم، وله عن الطائف: ملحقات واضافات مفيدة على كتاب حسن العجمي، السابق ذكره، وله تعليقات مفيدة جداً وبخاصة على بعض الاثار الإسلامية في الطائف، كما شاهد نصوصاً كتابية لتجديدات تمت في مسجد عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما)، وشواهد لبعض القبور، وذكر بعض المواقع الأثرية وحدود أماكنها ووصف مسجد الهادي في زمنه وصفاً جيداً[١].

١٥- ابن كمال، والشريف البركاتي، وشكيب ارسلان، ومن دبوى (ق١٣-ق١٤هـ/ق١٩-ق٢٠م):

ابن كمال: هو عبدالله بن بكر بن عبدالله بن الشيخ بكر بن علي بن عبدالحفيظ بن كمال بن محمد بن فاضل بن كمال النمري الثقفي، ولد بالطائف عام (١٢٩٠هـ/١٨٧٣م)، وقيل (١٢٨٣هـ/١٨٦٦م)، أرسله والده إلى البادية فنشأ بها، ثم عاد إلى الطائف ودرس على بعض علمائها، وأجيز للتدريس في مجلس ابن عباس، تولى قضاء الطائف سنة (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م)، ثم استقال من القضاء عام (١٣٤٠هـ/١٩٢١م)، وسافر إلى مكة فعين عضواً بلجنة المعارف، واستمر بها إلى أن توفي سنة (١٣٤١هـ/١٩٢٢م)، كان أسمر اللون، طويل القامة، كث اللحية، ألف كتاباً في تاريخ الطائف، فقد من أسرته عام (١٣٤٣هـ/١٩٢٤م)، ولا نعلم شيئاً عن محتويات هذا الكتاب[٢].

والشريف البركاتي، هو شرف بن عبدالمحسن، عاش في الحجاز، وعاصر الشريف حسين بن علي (أمير مكة) وخدم في حكومة الملك عبدالعزيز، ومات سنة (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م)[٣]. كتب رحلته التي أسماها: الرحلة اليمانية.، وهذه الرحلة عندما ذهب مع الشريف حسين بن علي (أمير مكة) من الحجاز إلى عسير عام (١٣٢٩هـ / ١٩١١م)، وذلك من أجل فك حصار الإدريسي عن مدينة أبها، ذهب الشريف حسين وجيشه عن طريق الساحل ثم صعد مع عقبه ساقين في تهامة بني شهر وواصل سيره إلى

---

(١) للمزيد انظر، الزركلي، الأعلام، جـ٣، ص٣٥٤، محمد سعيد كمال «قطر الطائف ومؤرخوه»، جـ٢، ص ١١٤، عمر بن عبدالجبار. سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر الهجري (جدة: دار عكاظ للطباعة والنشر، الناشر: تهامة، سلسلة الكتاب العربي السعودي، رقم (٦٧)، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م)، ص ١٩٦-١٩٩.

(٢) انظر، الزركلي الأعلام. جـ٤، ص٧٥، محمد سعيد كمال «قطر الطائف ومؤرخوه» جـ٢، ص١١٣-١١٤، عمر عبدالجبار، سير وتراجم بعض علمائنا، ص ١٦٣.

(٣) للمزيد انظر، غيثان بن علي بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٣، ص ٣٤٦-٣٤٧. جـ٥، ص ٥٥-٥٧. جـ٩، ص ١٦٥-١٦٦.

أبها، وعاد عن طريق بيشة والطائف حتى مكة[١]. وجل حديث هذا الرحالة عن الأحداث السياسية والعسكرية التي واجهت الشريف حسين بن علي في تلك الرحلة الحربية، كما دون معلومات قيمة عن الأمكنة والسكان الذين مر عليهم الشريف حسين وجيشه أثناء ذهابهم إلى أبها ورجوعهم إلى مكة المكرمة[٢]. وذكر أيضاً بعض التفصيلات عن القبائل التي تسكن جنوب وشرق الطائف، أو في محيط الحاضرة نفسها[٣]. ويشير البركاتي إلى دخولهم الطائف يوم الخميس (٢٢/شعبان/١٣٢٩هـ) وإقامتهم فيها حوالي شهرين، أي إلى (٢٤/شوال / ١٣٢٩هـ)، ثم ساروا إلى مكة عبر وادي المحرم، وعقبة الهدا، وذكر وفرة الفواكه والخضروات في هذه الأمكنة التي اجتازوها من وسط الطائف إلى رأس جبل الهدا الذي يذكر أن ارتفاعه عن سطح البحر (٢٢٥٠مترا) [٤].

وتحت عنوان جانبي سماه (إمارة الطائف)، قال: "ويوجد أيضاً بالحجاز إمارة للعرب، وهي الطائف، التي يبلغ عددها عشرين ألفاً، وأميرها سيادة الأمير الشريف زيد بن فواز من طرف دولة أمير مكة، وتحت إمارته جميع القبائل الموجودة بجبل السراة[٥]. والطائف هو نهاية جبل الحجاز من جهة الشمال، وبه عيون تجري، وآبار. وأراضي الطائف خصبة، وبساتينه كثيرة، وهواؤها جيد بارد جاف، وأهل مكة تذهب إليه في الصيف، كما أن دولة أمير مكة، وهيئة الحكومة، والأغنياء بمكة تذهب إليه كل عام صيفاً. والفواكه بالطائف كثيرة، من ضمنها: الرمان، والسفرجل، ولا يوجد لها مثيل في أنحاء المعمور، ويزرع بالطائف من الحبوب: البر، والشعير، والذرة، ويمتاز الطائف بجودة الورد.." [٦]، ويفصل الحديث عن جودة هواء الطائف في الصيف،

---

(١) هذه الرحلة طبعت وحققت أكثر من مرة، واعتمدنا على الطبعة التي حققها عبدالله بن عبدالرحمن بن الياس، وطبعتها دار نشر تراث العرب في بيروت، الطبعة الثانية عام (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م).

(٢) انظر الرحلة نفسها، ص٣٥، وما بعدها.

(٣) ومن تلك القبائل فروع من قبيلة عتيبة، وسبيع، والبقوم، وبني مالك، وثقيف، وقريش، المصدر نفسه، ص١٨٧ وما بعدها.

(٤) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ١٥٥-١٥٧.

(٥) إن التاريخ الإداري في بلاد السراة من الطائف شمالاً إلى أبها وبلاد وادعة وقحطان جنوباً غير واضح وبخاصة في القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة. والعصر الحديث حتى بداية القرن (١٤هـ/٢٠م). والقبائل في هذه البلاد صاحبة السيطرة على أوطانها، وإذا كان هناك امتداد لإمارات مكة المكرمة والطائف فهي شكلية، ولم تخضع هذه البلاد لمؤسسات إدارية تابعة لدولة حقيقية إلا منذ عصر الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، ونأمل أن يدرس موضوع الإدارة ونظمها في بلاد السروات منذ عصور ما قبل الإسلام حتى الأربعينيات من القرن (١٤هـ/٢٠م). وكذلك موضوع الحياة الإدارية في هذه البلاد خلال العصر الحديث والمعاصر منذ عام (١٣٥٠-١٤٣٨هـ/١٩٣١-٢٠١٧م). يحتاج هو الآخر إلى دراسة علمية موثقة.

(٦) البركاتي، الرحلة، ص ٢٠٣-٢٠٤.

ويذكر معلومات تاريخية حضارية عن بلاد الطائف وما حولها قل أن نجدها في مصادر ومراجع أخرى[١].

أما دبوي (Laurent Marcel Depui)، وشكيب أرسلان فقد جاء إلى الجزيرة العربية في بدايات الدولة السعودية الثالثة. فالأول، لورون مارسال دبوي ولد في وسط شرق فرنسا قريباً من الحدود السويسرية عام (١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م)، والتحق بالجيش الفرنسي سنة (١٣١٤هـ/١٨٩٦م)، وقضى سنوات من عمره في عمله العسكري في الشرق الأوسط (سوريا، والحجاز، والصومال، ونجد)، وأعلن اسلامه، وتسمى باسم (الشريف إبراهيم)، أو (الشريف الياس إبراهيم)[٢]. قدم دبوي إلى الحجار برتبة نقيب في عام (١٣٣٦هـ / ١٩١٧م) ضمن البعثة العسكرية والسياسية الفرنسية إلى الجزيرة العربية، وشارك مع الشريف حسين في العديد من الأحداث التي وقعت في الحجاز، ثم غادر الحجاز عام (١٣٣٨هـ/١٩١٩م)، ورجع إليها في العام التالي (١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م). وبقي يقوم بأعمال القنصلية الفرنسية في جدة حتى عام (١٣٤٨هـ/١٩٢٩م)[٣]، واستمر بعد ذلك في صلات مستمرة مع المملكة العربية السعودية، وشغل أيضاً منصب قنصل لبلجيكا في جدة بين سنتي (١٣٥٤، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٥، و ١٩٣٨م). لم يذكر دبوى معلومات محددة عن مدينة الطائف، لكنه دون الكثير من التفصيلات عن أحداث الحجاز في عهد الشريف حسين بن علي، ثم دخول مدن الحجاز وحواضرها تحت السلطة السعودية في عهد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، وكان هذا الرحالة والسياسي فاعلاً في صنع علاقات الدولة الفرنسية بكل من دولتي الشريف حسين والملك عبدالعزيز بن سعود[٤].

والثاني شكيب أرسلان، وهو شكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان، ولد عام (١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م) بالشويفات في لبنان، وتعلم في مدرسة الحكمة في بيروت، ثم عين مديراً للشويفات ثم قائم مقام، أقام مدة في مصر، وانتخب نائباً عن حوران في مجلس

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٦-١٥٧، ٢٠١ وما بعدها.

(٢) علي محمد الزيدي "أهمية مدونات الفرنسي دبوي بوصفها مصدراً لتاريخ المملكة العربية السعودية خلال المدة (١٩١٩-١٩٢٩م) بحث منشور في كتاب: الرحلات في شبه الجزيرة العربية، الذي طبعته ونشرته دارة الملك عبدالعزيز عام (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، جـ٢، ص٨٠٧ وما بعدها.

(٣) للمزيد انظر، عبدالجليل التميمي. "حكومة الشريف حسين بالحجاز والبعثة السياسية والعسكرية الفرنسية بالجزيرة العربية، (١٩١٦-١٩١٨م). المجلة التاريخية المغاربية، عدد (٨٣-٨٤) (زغوان) (١٩٩٦)، ص ٢٠٣-٢٢٣، انظر أيضاً علي محمد الزيدي. «أهمية مدونات الفرنسي دبوي بوصفها مصدراً لتاريخ المملكة العربية السعودية». ص ٨٠٧-٨٠٩.

(٤) المراجع نفسها.

المبعوثان العثماني، سكن دمشق إبان الحرب العالمية الأولى، ثم برلين، ثم جنيف التي مكث بها (٢٥) سنة. عاد بعدها إلى بيروت، وتوفي بها سنة (١٣٦٦هـ / ١٩٤٦م). يعرف بأمير البيان، عالم بالأدب والسياسة، ومؤرخ، من كبار الكتاب[١]. له العديد من المؤلفات، وكتابه الذي يعنينا، هو: الارتسامات اللطاف في خاطر الحج إلى أقدس مطاف، والكتاب يقع في حوالي (٣٥٦) صفحة من القطع المتوسطة، قام عبدالرزاق محمد سعيد كمال بمراجعته والتعليق عليه، ثم طبعته مكتبة المعارف بالطائف عام (١٣٩٧هـ) [٢]. وهذا الكتاب يشتمل على روايات وأخبار تاريخية كثيرة عن الطائف، وجمعيها منقول من مصادر ومراجع عديدة، كما تحدث أرسلان بشكل موجز عن الآثار التي شاهدها في الطائف وبخاصة الموجودة في مسجد عبدالله بن عباس، أو في بعض الأمكنة الأخرى من المدينة، وذكر المؤلف ايضاً بعض مشاهداته في وادي القيم، والمثناة، والسلامة، والوهط، والوهيط، والشفا، ووادي المحرم، والهدا، وذكر أيضاً بعض الأخبار والمشاهدات التي رآها في الطريق ما بين مكة والطائف عبر الزيمة والسيل الكبير[٣].

١٦- محمد بن بليهد، ومحمد حسين هيكل، والزركلي، وحافظ وهبة (ق١٤هـ/ ق٢٠م):

ابن بليهد، هو: محمد بن عبدالله بن بليهد من قبيلة بني خالد من قحطان، ولد في الوشم بنجد سنة (١٣٠٠هـ/١٨٨٣م)، وتعلم بها القراءة، والكتابة، وتذوق الشعر النبطي، كان عارفاً بالدروب والمسالك في قلب الجزيرة العربية، وتنقل في بلدان عديدة داخل الجزيرة العربية، فأصبح خبيراً بجبالها، ووهادها، وأوديتها، وقراها، ومنازلها، وتوفي عام (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م). صنف كتابه، الموسوم بـ: صحيح أخبار عما في بلاد العرب من الاثار، ويقع هذا المؤلف في خمسة أجزاء[٤]. وهذا الكتاب في الأساس جغرافي، لكنه لا يخلو من إشارات إلى معالم وآثار بعض المواضع من حاضرة الطائف، مثل: سوق عكاظ، ووادي وج، والوهط والوهيط وغيرها، ولا يوجد في هذا السفر تفصيلات تاريخية وحضارية مهمة[٥].

أما هيكل، فهو: محمد حسين سالم هيكل، ولد عام (١٣٠٥هـ/١٨٨٨م) بقرية

---

(١) انظر، الزركلي، الأعلام، جـ٣، ص ١٧٣-١٧٤.
(٢) صدر هذا الكتاب ضمن سلسلة المكتبة الكمالية رقم (٢١) عام (١٣٩٧هـ).
(٣) شكيب أرسلان، الارتسامات اللطاف، ص١٥٩، ١٦٠، ١٦٥، ١٦٧، ١٧١-١٧٥، ١٧٧-١٩٨، ٢٠٠ وما بعدها.
(٤) الزركلي، الأعلام، جـ٦، ص٢٤٥، ٢٤٦.
(٥) الزركلي، الأعلام، جـ٦، ص ٢٤٦.

كفر غنام بالدقهلية في مصر، وتخرج في مدرسة الحقوق عام (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م)، ثم ابتعث إلى فرنسا وحصل على درجة الدكتورة من السوربون عام (١٣٣١هـ/١٩١٢م). وهو كاتب، وصحفي، ومؤرخ، ومن رجال السياسة، ومن أعضاء المجمع اللغوي، ولي وزارة المعارف مرتين، ثم رئاسة مجلس الشعب، كتب في العديد من الصحف والمجلات، وتولى تحرير بعضها، وأصدر عدداً من المجلات، وصنف العديد من الكتب، وتوفي سنة (١٣٧٦هـ /١٩٥٦م) [١]: ويعد محمد حسين هيكل من الرحالة الذين جاءوا إلى جزيرة العرب، فكتابه: في منزل الوحي[٢]، أورد فيه تفصيلات كثيرة عن مدن الحجاز، وخص الطائف بصفحات عديدة تدور في فلك تاريخه الحضاري، وقد ذكر هيكل الكثير من المشاهدات التي رآها في قرى ومعالم الطائف المختلفة كما أنه اعتنى كثيراً بآثار الطائف من الكتابات والمباني، فزار العديد منها داخل مدينة الطائف وخارجها، كما درس بعض الآثار والنقوش التي وقف عليها في بعض المواضع من المدينة[٣].

أما الزركلي، فهو خير الدين بن حمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، ولد في (٩/ذي الحجة ١٣١٠هـ / ١٨٩٣م)، في بيروت، ونشأ بدمشق وتعلم بمدارسها، وأخذ من علمائها، وذهب إلى بيروت في الكلية العلمانية تلميذاً، ثم استاذاً، عاد إلى دمشق، ثم رحل عنها بعد دخول الفرنسيين إلى فلسطين ومصر، والحجاز، اتصل ببعض الحكام العرب في عصره مثل: الملك حسين بن علي، والملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل، وساح في بلدان عربية وغربية، وتقلد بعض الأعمال السياسية والدبلوماسية[٤]، وأنشأ المطبعة العربية في القاهرة في أواخر عام (١٣٤٢هـ/١٩٢٣م)، شارك في إصدار بعض الجرائد في دمشق، وله العديد من المؤلفات وأبرزها: كتاب (الأعلام)، وشبه جزيرة العرب في عهد الملك عبدالعزيز، طبع في أربعة أجزاء، ثم اختصره بكتاب (الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز) في مجلد واحد، ومؤلفات أخرى عديدة، وما يهمنا في هذه الدراسة كتاب: ما رأيت وما سمعت[٥]، وجل مادة هذا الكتاب قامت على الرحلة والمشاهدات، جاء هذا العالم الرحالة من الشام وتجول في ربوع الحجاز وكتب عن أرضها وسكانها، وخص الطائف بصفحات عديدة، حيث سار من

---

(١) انظر، الزركلي، الأعلام، جت٦، ص ١٠٧.

(٢) انظر، محمد حسين هيكل. في منزل الوحي (القاهرة: مكتبة النهضة، د.ت)، ص ٤٣ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الزركلي، الأعلام، جـ٨، ص ٢٦٧-٢٧٠.

(٥) طبع هذا الكتاب في الطائف، مكتبة المعارف، المكتبة الكمالية رقم (٢٣)، قدم له وعلق عليه عبدالرزاق كمال (د.ت)، ص١٩ وما بعدها. وللمزيد عن سيرة الزركلي الذاتية، انظر تقديم الكتاب نفسه، ص٣-١٨.

مكـة عبر وادي نعمان والهدا إلى الطائف، وذكر أسـماء بعض القرى التي شـاهدها في قمة جبال الهدا، وصـوراً من الحياة الزراعية والاقتصـادية في تلك الناحية[١]. ويدخل الزركلي الطائف يوم الثلاثاء (١٤/محرم/١٣٣٩هـ/١٩٢٠م) ويذكر شذرات عن أهمية الطائف العسكرية والاقتصادية والتاريخية، ويورد معلومات على لسان الشريف عبدالله بن الحسـين بن علي الذي قاد معركة عرب الطائف ضـد القوات العثمانية في الطائف، وكيف هزموهم وأخرجوهم من حاضرة الطائف[٢]. كما أفاض هذا الرحالة في الحديث عن آثار الطائف، وشـاهد النقوش في جبل السـكارى، وأم العراد، والردف، وقرأ نماذج منها، وأورد تقرير البعثة الزراعية الذي يتحدث عن جوانب عديدة مثل المناجم وأماكن التعديـن القديمة، كما وصـف بعض مسـاجد الطائـف، وأعلامها وأدبائهـا عبر أطوار التاريـخ الإسـلامي[٣]، وذكر بعض أوديتها، وقراها وآبارها، وبسـاتينها، وحصـونها، وعيونها[٤]، وأشار إلى بعض العشائر والقبائل التي تسكن مدينة الطائف وما حولها[٥].

ويفصل هذا المؤرخ والرحّالة بعض المشاهدات عن مدينة الطائف الرئيسية، فيقول: " أحيط الطائف بسور يضم داخل البلدة من جميع أطرافها، وليس هذا بالحائط الذي يقال إن الطائف سـمي لإطافته به منذ عرفت هذه الديار في العصـور الغابرة، بل ذلك قـد اندرس، وأقيم هـذا بعد عام الألف الهجريـة حول أكبر قرية في ديـار الطائف[٦]، ومـا برح الأمراء والأشـراف وغيرهم يتعهدونه بالإصـلاح والترميـم والبناء حتى بقي إلى الآن حافظـاً مكانه. ولسـور الطائف ثلاثة أبواب، تغلق كل يـوم بعد الغروب، وهي: **(١)** باب الحزم، وهو الشـرقي الموصل إلى شـبرة. **(٢)** باب الريع، وهو الغربي الموصل إلى السـلامة والمثنـاة. **(٣)** بـاب ابن عباس، وهو بجانب مسـجد ابـن عباس يقع على الجهـة الجنوبيـة إلى الغرب من الطائف[٧]. وهذه الأبـواب يرجع عهدها إلى زمن بناء السور على الغالب، وقد جددت عمارته قبل قدوم محمد علي باشا المصري إلى الحجاز

---

(١) الزركلي، ما رأيت وما سمعت، ص ٦١-٧٦.
(٢) المصدر نفسه، ص ٨٠-٩١.
(٣) المصدر نفسه، ص ٩٢ وما بعدها.
(٤) المصـدر نفسـه، ص ١٢٩-١٤٦. يستحسـن الاطلاع على هذه الصفحات لمعرفة أسـماء عدد من القرى والعيون والآبـار والحصـون التـي عرفتها بلاد الطائـف، ومعظمها اليـوم اندثر، أو تغيرت أسـماؤها مـع عجلة التطور والتمدن الحضاري الذي تعيشه الطائف.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٤٧-١٥٨.
(٦) المصدر نفسه، ص ١١٣-١١٤.
(٧) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م)، وبقيت الأبواب تعرف بأسمائها إلى اليوم[١]. والطائف ثلاث حارات. الأولى: حارة فوق، وهي وراء باب الريع للداخل إلى البلدة. والثانية: حارة أسفل وهي مسكن الأمراء والأشراف وتقع خلف باب الحزم. والثالثة: حارة السليمانية: وهي على مقربة من باب ابن عباس، يراها الداخل من هذا الباب على يمينه[٢]. وأوسع هذه الحارات وأكثرها سكاناً حارة أسفل، ثم حارة فوق، ثم السيلمانية[٣]. وكانت منازل الطائف قبل الحرب[٤] تناهز (١٥٠٠) منزل، وفي أوائل الحرب اشتدت أزمة العيش فيه فبارحه بعض السكان، ثم كانت الثورة[٥] فتهدم جانب عظيم من القصور والأبنية، وتداعى جانب غير يسير ما زال إلى اليوم، يراه الناظر شاخصاً في الفضاء، وقد جرد من الأثاث والبلورات وتباعد عنه الناس مخافة سقوطه... وقد أخبرني رئيس بلدية الطائف أن الدور العامرة الآن المسكونة قد لا تزيد عن ألف دار[٦]. وأما سكان بلدة الطائف عدا القرى المحيطة بها والقبائل الضاربة قريباً منها أو بعيداً عنها، فهي الآن لا تقل عن خمسة آلاف، وربما كان عدد الراحلين عنها قبل الثورة يقارب عدد الباقين اليوم"[٧]. ويشير هذا العالم إلى عدد المدارس في الطائف أثناء زيارته لها، وبعضها أسستها الدولة العثمانية، وأخرى أنشأها الشريف حسين بن علي[٨]. ويذكر الزركلي شيئاً عن الزراعة من مشاهداته ومما نقله من تقرير البعثة الزراعية، ويشير إلى بعض الزراعات المحلية في حاضرة الطائف، فيقول: "انحصرت الزراعة المحلية فيها بزراعة الحبوب وأخصها الحنطة، والشعير، والدخن، وبزراعة الفواكه وأخصها الرمان، والسفرجل، والتفاح، والكمثرى، والعنب، والليمون، والخوخ، وتكثر فيها الخضر مثل: الملفوف، والكرنب، والسبانخ، والبندورة، والباذنجان، والملوخية، والكوسة ، والبامية، والفاصوليا، والبصل، والشمام (الخربز)، والثوم، والبطيخ الأحمر (الحبحب)، والفول، والفجل"[٩]. ويذكر أنه يوجد بالطائف ثلاثة مواسم للزراعة، هي: المزروعات

(١) المصدر نفسه، ص ١١٤.
(٢) المصدر نفسه، ص ١١٤.
(٣) المصدر نفسه، ص ١١٤.
(٤) يقصد بالحرب: أي الحرب العالمية الأولى.
(٥) يقصد بالثورة: أي ثورة الشريف حسين بن علي ضد الأتراك.
(٦) الزركلي، ما رأيت وما سمعت، ص ١١٥.
(٧) المصدر نفسه، ص ١١٥.
(٨) المصدر نفسه، ص ١١٦.
(٩) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

الربيعية، والمزروعات الشتوية، والمزروعات المتوسطة ما بين الأولى والثانية[١]. ويذكر أنه مكث نيفاً وعشرين يوماً في الطائف في صحبة أعيانها مثل: أمير الطائف، وقاضيها، ومدير شرطتها، وفريق من ضباط الجيش، وكانوا يتجولون في أرجاء الأوطان الطائفية، وقد أشرنا إلى بعض مشاهداته في هذه البلاد[٢].

أما حافظ وهبة، فهو من مواليد بولاق في مصر عام (١٣٠٧هـ/١١٨٩م)، عاش في أسرة متوسطة الحال، وبدأ تعليمه في الكتاتيب، ثم أرسله والده إلى الأزهر، ودرس في مدرسة القضاء الشرعي، وتعلم على أيدي علماء كثر. هرب من المستعمر البريطاني إلى الكويت وعمل في مهنة التدريس، وإمامة الناس في بعض مساجد الكويت، اتصل بالملك عبدالعزيز في الكويت، ثم طلبه الأخير للعمل في بناء الدولة السعودية الحديثة، فغادر الكويت إلى الملك ابن سعود في الرياض، وصار من مستشاريه الرئيسيين، فصمم علم المملكة العربية السعودية، وأرسل في مهمات سياسية، ودبلوماسية عديدة داخل البلاد العربية وخارجها، كما عين سفيراً للمملكة العربية السعودية في بريطانيا، وعمل جاهداً على توطيد العلاقات السياسية بين بريطانيا والسعودية، وبين المملكة العربية السعودية ومصر، وله جهود كثيرة في تأسيس المملكة العربية السعودية. له مؤلفان هما: **(١)** خمسون عاماً في الجزيرة العربية. **(٢)** جزيرة العرب في القرن العشرين[٣]، وفي هذين الكتابين دون تفصيلات جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب، ورصد تفاصيل كثيرة عن حكامها في القرن (١٤هـ/٢٠م)، وخص الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل بالنصيب الأكبر من هذه المعلومات. وأثناء حديثه عن مدن وحواضر المملكة العربية السعودية تحدث عن مدينة الطائف فأكّد أقوال من سبقه في اعتدال هوائها، وكثرة فواكهها وخضرواتها، وغزارة مياهها، وهي مدينة محاطة بسور، وأشار إلى أن عدد سكانها في عصره نحو عشرة آلاف نسمة، وأغلبهم من القبائل العربية مثل: ثقيف وعتيبة وغيرها[٤].

١٧- فلبي، ويوسف ياسين، وفؤاد حمزة (ق١٤هـ/ق٢٠م):

هؤلاء الأساتذة الثلاثة جاءوا إلى الجزيرة العربية في القرن (١٤هـ/٢٠م) واتصلوا بالملك عبدالعزيز وتفانوا في خدمته، وكتبوا شيئاً مما عرفوه أو شاهدوه أو قرأوه عن

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٥.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٩. يستحسن قراءة كتاب الزركلي. ما رأيت وما سمعت، ففيه كثير من التفصيلات عن الطائف وغيرها من بلاد الحجاز.
(٣) انظر هذا الكتاب في طبعته الثالثة (القاهرة، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م)، ص١ وما بعدها.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٥.

بلاد وسكان هذه الجزيرة. وأشهرهم، بل أشهر من زار الجزيرة العربية وكتب عنها في العصر الحديث، هو فلبي. واسمه هاري سانت جون فلبي، والمعروف بـ (جاك)، أو (الشيخ فلبي)، أو الحاج فلبي، ولد في سيلان عام (١٣٠٣هـ/١٨٨٥م)، أنهى تعليمه الجامعي في بلده الأصل (بريطانيا)، وفي جامعة كمبردج، التحق بالخدمة المدنية في الهند عام (١٣٢٦هـ /١٩٠٨م)، ثم انتقل إلى العراق سنة (١٣٣٣هـ/١٩١٤م)، وفي عام (١٣٣٦هـ/١٩١٧م) سافر إلى الرياض والتقى بالإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل، وسار إلى الحجاز وقابل أمراء الأشراف في الطائف وجدة، وقام بعدد من الرحلات إلى القاهرة والقدس، ثم عاد إلى ابن سعود عام (١٣٣٧هـ / ١٩١٨م)[١]. واستمر يقوم ببعض الرحلات في بلاد العرب وذلك بتكليف من حكومته بريطانيا، لكن الظروف جعلته يقرب من الملك عبدالعزيز بن سعود وتترسخ العلاقة بين الاثنين، وهذا مما جعل فلبي يمكث في البلاد العربية السعودية حوالي أربعين عاماً، فجاب معظم أجزائها وكتب عنها عشرات الكتب والدراسات، واعتنق الإسلام عام (١٣٥٠هـ/١٩٣٠م)، وصار من حاشية ابن سعود المقربين حتى وفاة الملك عبدالعزيز عام (١٣٧٣هـ/١٩٥٣م)، بعدها أحس فلبي أنه غير مرغوب فيه فقرر الذهاب إلى لبنان، ومات في بيروت عام (١٣٨٠هـ/١٩٦٠م)[٢].

وعند فحص مؤلفات فلبي التي أشارت إلى الطائف، وجدت البعض منها تفاوتت في مدوناته عن هذه المدينة، واتضح لنا أنه زار بلاد الطائف مرات عديدة، وكل مرة يزورها يذكر شيئاً من تاريخها وحضارتها في عصره، أو عبر أطوار التاريخ العربي والإسلامي. ومن الكتب التي أشارت إلى صور من أرض وسكان الطائف، هي: **(١)** مغامرات النفط العربي[٣]. **(٢)** حاج في الجزيرة العربية[٤] **(٣)** العربية السعودية من سنوات القحط إلى بوادر الرخاء.[٥] **(٤)** قلب الجزيرة العربية (جزءان)[٦].

---

(١) روبن بدول، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ص٩٠-١٠٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٥-١٢٠. للمزيد انظر غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٣، ص٣٤٨. جـ٤، ص٤٧. جـ٩، ص١٦٩-١٧٠.

(٣) انظر هارى سانت جون فلبي نقله إلى العربية الدكتور/ عوض البادي (الرياض: مكبة العبيكان، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م)، (٢٥١ صفحة).

(٤) انظر، هاري سانت جون فلبي. ترجمة الأستاذ الدكتور/ عبدالقادر محمود عبدالله (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م. (٣٥٥ صفحة).

(٥) هاري سانت جون فلبي. ترجمة الدكتور/ عاطف فالح يوسف. (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م). (٦٨٠ صفحة).

(٦) انظر فلبي، ترجمة الدكتور/ صلاح علي محجوب (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م). الجزء الأول (٤٨٦ صفحة). والجزء الثاني (٦٣٠ صفحة).

(٥) الذاكرة العربية للمملكة العربية السعودية[١]. (٦) أربعون عاماً في البرية.[٢] (٧) مرتفعات الجزيرة العربية (جزءان)[٣].

كانت أول زيارة لفلبي إلى الطائف عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م)، حيث أرسلته الحكومة البريطانية لمقابلة الشريف حسين بن علي في الحجاز، وعند وصوله الطائف استقبله أميرها، وهو من قرابة الشريف الأكبر (حسين بن علي) وأنزله في منزل أعد له مع رفاقه، وزار الأمير في منزله في قصر شبرا[٤]، ثم دون بعض التوضيحات عن هيئة منازل الطائف التي تتكون من طابق وطابقين، وذكر أنواع بعض المنازل التي دخلها، كما أشار إلى رجال الشرطة الذين يقومون على حفظ الأمن وحراسة المدينة، كما أورد بعض التفصيلات عن الطرق والأزقة وسط الطائف، وأشار إلى عدد من الأشربة والأطعمة التي قدمها أمير الطائف أو بعض الأعيان والوجهاء الذين استضافوه ورفاقه[٥]. وقد رأى السكان يتضاعفون في الطائف أثناء فصل الصيف، وأغلبهم يأتون إليه من مكة للراحة والاستجمام[٦]. كما أن الجرائد مثل جريدة القبلة وغيرها كانت ترسل من مكة المكرمة إلى الطائف[٧]، ودون بعض الشذرات الاقتصادية والاجتماعية التي شاهدها

---

(١) فلبي، ترجمة الدكتور/ عباس سيد أحمد (الرياض: مكتبة العبيكان (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، (٤٥٤ صفحة).

(٢) فلبي، ترجمة الدكتور/ عاطف فالح يوسف (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٥ه/٢٠٠٤م)، (٤٤٧ صفحة).

(٣) هارى سانت جون فلبي، ترجمة الدكتور حسن مصطفى حسن، وتقديم ومراجعة وتعليق أ.د. غيثان بن علي بن جريس (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م). الجزءان (١٤٤٩ صفحة). هذه الكتب المذكورة أعلاه وغيرها من مؤلفات فلبي بحاجة إلى دراسات في عدد من البحوث، وهي مليئة بالمواد العلمية القيمة والجديرة بالقراءة والبحث.

(٤) قصر شبرا: هو القصر الذي كانت فيه الإمارة وبعض المؤسسات الإدارية الأخرى، وهو اليوم وسط مدينة الطائف. وقد أشار فلبي إلى شيء من هيئة هذا القصر الخارجية، وبعض غرفه وصالاته، وطوابقه وتقسيماته الداخلية، وما يحيط به من مرافق وأبنية أخرى. ويذكر أن الذي بناه الأشراف، وقد بنوه تيمناً بقصر آخر سكنه البعض منهم في حي شبرا بالقاهرة. وهذا الرحالة اشار إليه في مرات عديدة من زياراته للطائف، لكن أول مرة شاهده عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م) عندما كان الأشراف مسيطرين على الطائف، وأورد بعض المعلومات عنه أيضاً في سنوات أخرى لاحقة عندما صار مقراً للإمارة في عهد الملك عبدالعزيز. انظر فلبي، قلب الجزيرة العربية، جـ١، ص١٨٩. للمؤلف نفسه، الذكرى العربية للمملكة العربية السعودية، ص ١٦٩-١٧٠، المؤلف نفسه، حاج في الجزيرة العربية، ص١٧٢.

(٥) دون فلبي صوراً عديدة من تاريخ الطائف في عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م)، وتحت عنوان مستقل أطلق عليه (الأرض المقدسة) وأفرد لمدينة الطائف حوالي (٢٢) صفحة ذكر فيها معلومات تاريخية وجغرافية واقتصادية واجتماعية متنوعة. انظر كتابه، قلب الجزيرة العربية، جـ١، ٢٨٩-٣١١.

(٦) المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٩٧-٢٩٨.

(٧) المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٩٢. كانت العديد من الكتب والمجلات والجرائد ترسل من مكة إلى الطائف وغيرها من حواضر الحجاز، بل كانت تصل إلى بعض قرى ومدن تهامة والسراة. المصدر: هذا ما سمعه الباحث من بعض الرواة الذين عاصروا العقود الوسطى من القرن (١٤هـ/٢٠م).

في الطائف في العقد الرابع من القرن الهجري الماضي، فيقول: "يكون الضأن ونحل الجبال وأشجار الفاكهة الموجودة بالوادي، وسفوح الجبال مصادر للتجارة بين السكان المحليين، ويتمتع عسل نحل الطائف بشهرة عالية مستحقة في الجزيرة كلها... ويكون عسل النحل ولبن الضأن الغذاء الرئيسي لسكان الجبال، كما أن التمر ولبن النوق يكونانه في الصحراء العربية. وتزود بساتين الطائف مكة بالسفرجل، والرمان، والخوخ، والمشمش، والعنب، والبطيخ، والشمام والقرع وخضروات مختلفة، وهناك بساتين نخيل في القرى الدنيا مثل الأخيضر، والقيم، والمريسية، ولكن ليس في الطائف نفسها، كما توجد أشجار البرتقال والليمون هنا وهناك ولكن ليس بوفرة"[١]. ويذكر وصفاً لبعض جبال الطائف مثل: الهدا، وقرانيت[٢]، وبعض العشائر التي تستوطن الطائف، وفي عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م) يزور مسجد عبدالله بن عباس، ويذكر بعض أوصافه المعمارية، فيقول: "يقع المسجد خارج البوابة الجنوبية مباشرة، وهو بناء أنيق تصطف فيه أعمدة حجرية مزخرفة في اتجاه الداخل حتى البهو المكشوف، وفي وسطه ترتفع قبتان متناسقتا الأبعاد، أولاهما: تقف على ضريح عبدالله بن عباس[٣]. والقبة الثانية: فوق ضريحين لأبناء الرسول (ﷺ) (عبدالله، والطيب، والطاهر)، ومحمد بن الحنفية، وفي أحد أركان المربع ترتفع مئذنة، ويقع المدخل الرئيسي للمسجد في الجانب الجنوبي، وهو فقط قوس مزخرف وفي وسطه باب"[٤].

وفي الرحلة الآنف ذكرها بين فلبي طبيعة وادي وج وما يوجد عليه من القرى، ونوعية وأحجام المنازل الموجودة في تلك الناحية، وذكر بعض الأبنية العسكرية في حاضرة الطائف[٥]. ومنذ بداية خمسينيات القرن الهجري الماضي تردد فلبي على الطائف مرات عديدة، والتقط عدداً من الصور الفوتوغرافية لبعض المعالم الجغرافية في منطقة الطائف[٦]، وشرح بعض الآثار المعمارية التي تهدمت على أثر الحروب التي

---

(١) فلبي، قلب الجزيرة العربية، جـ١، ص٢٩٩. يذكر فلبي كثر الفواكه والخضروات في الطائف عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م)، وفي مرات تالية من الخمسينيات إلى السبعينيات الهجرية تردد على الطائف مرات عديدة، وفي كل مرة يذكر غنى الطائف بهذه السلع التي كانت تصدر إلى مكة وإلى أسواق عديدة في الجزيرة العربية.

(٢) قرانيت: جبل جنوب الطائف في شفا بني عمر من بني سفيان ثقيف، ذو شعبتين إحداهما أطول من الأخرى. انظر، البلادي، معجم معالم الحجاز، جـ٧، ص ١٢٢.

(٣) عبدالله بن عباس. ولد ومات ودفن في مكة. انظر، فلبي، قلب الجزيرة العربية، جـ١، ص٣٠٠. حاشية (١).

(٤) المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٠٠. ونقول إن مساجد الطائف التاريخية مثل مسجد ابن عباس ومسجد الهادي وغيرهما تستحق أن يفرد لها كتاباً أو رسالة علمية موثقة.

(٥) فلبي، قلب الجزيرة العربية، جـ١، ص ٣٠٣-٣٠٦، ٣٠٨-٣٠٩، ٣١٠-٣١١.

(٦) فلبي، حاج في جزيرة العرب، ص ١٤٢، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٢.

عاشتها الطائف خلال القرن (١٣هـ/١٩م)، وبدايات القرن (١٤هـ/٢٠م) [١]، وذكر بعض الشخصيات التي قابلها في الطائف ومعظمهم من مستشاري الملك عبدالعزيز مثل فؤاد حمزة، وعبدالله السليمان، وحافظ وهبة وغيرهم[٢]، كما تجول في نواحي الطائف مثل: وادي المحرم، والهدا، وبعض قرى الطائف، كالسلامة، والمثناة، وفصل الحديث عن رحلة خرج فيها إلى جبال قرانيت[٣] في شفا بني عمر من بني سفيان ثقيف، وأفرد لتلك الرحلة حوالي أربعين صفحة تحت عنوان (قرانيت التاج) [٤]، وهذه الناحية تبعد عن وسط الطائف أكثر من عشرين كيلاً، وفي هذه الرحلة أشار إلى بعض العشائر والقرى التي توجد على تلك الطريق، والغطاء النباتي الكثيف الذي في تلك الناحية، والمعالم الجغرافية التي تشتهر بها، كما ذكر بعض الأطعمة والأشربة التي شاهدها في بعض المنازل والقرى التي مروا عليها، كما لفت نظره كثرة الحصون الموجودة على رؤوس الجبال وفي الأودية التي كانت تستخدم لأهداف حربية[٥]، وعند مروره في تلك البلاد عام (١٣٥٠هـ/١٩٣٠م) أصبحت تلك القلاع والحصون تستخدم مخازن للأعلاف والحبوب وأحياناً سكناً للمواشي[٦]. وفي مواضع عديدة من كتبه أشار إلى جغرافية الحوية، وبدايات التنمية الحديثة في الطائف في عهد ابن سعود، مثل الخدمات الصحية، والعسكرية، والاتصالات وغيرها، كما ذكر مواقع في أطراف الطائف من جهاتها الأربع، وجميعها شاهدها أو مر قريباً منها، ودون بعض المعلومات عن النشاطات العسكرية التي جرت على أرض الطائف في نهاية حكم الأشراف، أو أثناء مجيء العثمانيين الأتراك إلى تلك النواحي، أو عندما دخلت هذه الناحية تحت حكم ابن سعود[٧].

أما يوسف ياسين، فهو من بلاد الشام، من بلدة اللاذقية، ولد عام (١٣١٠هـ/١٨٩٢م)، بدأ حياته الأولى في الشام، ثم سافر إلى مصر، وعاد إلى

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٠٧-٢٤٣.

(٢) فلبي، أربعون عاماً في البرية، ص ٣٢٥-٣٢٩.

(٣) للمزيد عن جبل قرنيت، انظر البلادي، معجم معالم الحجاز. جـ٧، ص١٢٢.

(٤) انظر، فلبي، حاج في جزيرة العرب، ص ٢٠٧-٢٤٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٧-٢٤٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٠٧ وما بعدها.

(٧) فلبي، العربية السعودية، ص٥٥٣ وما بعدها. المؤلف نفسه، حاج في الجزيرة العربية، ص١٤٢ وما بعدها، المؤلف نفسه، أربعون عاماً في البرية، ص ٢٢٩ وما بعدها، المؤلف نفسه، مغامرات النفط العربي، ص ١٦، ١٧، ٣٢، ٣٥، ٧٠، المؤلف نفسه، الذكرى العربية، ص١٢٣، وفي هذا الكتاب الأخير دون (١٧) صفحة وضح فيها جدول الملك عبدالعزيز اليومي، وذلك أثناء ملازمته له في الطائف عدة أيام عام (١٣٧٠هـ/١٩٥٠م)، فلبي، الذكرى العربية، ١٦٣-١٨٠. انظر أيضاً فلبي، مرتفعات الجزيرة العربية، جـ١، ٧٣، ٩٥، ١٥١، ١٦٢، ١٦٩، ١٨٥، المؤلف نفسه، قلب الجزيرة العربية، ج١، ص٢٨٩ وما بعدها.

الشـام، وبعد الاحتلال الفرنسـي لسـوريا هرب إلى الحجاز أثناء حكم الأشـراف، ثم رجـع إلى الأردن والقدس، ثـم عاد إلى دمشـق ودخل كلية الحقـوق، ولم يلبث أن اتفق مع بعض أصـدقائه وسـافروا إلى الرياض عن طريق الاحسـاء. وقد حظي بثقة ورعاية الملـك عبدالعزيـز بن عبدالرحمن الفيصـل وسـافر معـه في رحلتـه إلى الحجاز عام (١٣٤٣هـ/١٩٢٤م)، واشـرف على إصدار جريدة أم القرى، ثم عينه الملك عبدالعزيز رئيسـاً للشعبة السياسـية في الديوان الملكي، ثم أضيف على منصـبه وزير دولة، فتولى إدارة وزارة الخارجيـة بالنيابـة، واسـتمر في عملـه بعد وفـاة الملـك عبدالعزيز فكان مستشـاراً للملك سـعود بـن عبدالعزيز، وتـوفي في مدينة الدمام ودفـن بالرياض عام (١٣٨٢هـ/١٩٦٢م). له كتاب بعنوان: الرحلات الملكية (رحلات جلالة الملك عبدالعزيز إلى مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة والرياض، المنشورة في جريدة أم القرى (١٣٤٣-١٣٤٦هـ). ومادة هـذا الكتاب دونها عدد من الكتاب ورجال الملك عبدالعزيز ونشـرت في جريدة أم القرى، وقام يوسـف ياسـين بجمعها وترتيبها ونشـرها[١]. ولا نجد مادة علميـة كثيرة تذكـر في هذه الرحلات عن حاضـرة الطائف، اللهم إلا المقالة المنشـورة في الجريدة في (١٠/شـعبان/١٣٤٣هـ) التي تشـير إلى وصول الملك عبدالعزيز ورفاقه إلى بلدة عشـيرة القريبة من منطقة الطائف وكان ذلك في الخامس من جمادى الأولى عام (١٣٤٣هـ/١٩٢٤م) حيث قام بها الملك تلك الليلة واسـتقبل عدداً من الوفود وكثير منهـم من قبائل منطقة الطائف[٢]. وفي السـادس من شـهر جمـادى الأولى من العام نفسـه، خرج موكب الملك إلى قرية السـيل استعداداً للإحرام ودخول مكة، ويذكر كاتب المقالة بعض المعلومات عن بلدة السيل، التي هي جزء من منطقة الطائف، فيقول: "وهي قريـة فيها بعض بيوت قليلة، والماء متوفر في ذلك المكان، وإذا حفر الإنسـان في الأرض مقـدار متر أو مترين وجد الماء العذب"[٣].وبعد الإحرام سـار الملك في رحلته حتى نزل في الزيمة[٤].

---

(١) هـذه الرحـلات المنشـورة في جريـدة أم القـرى طبعـت في وزارة المعـارف عـام (١٣٨٩هـ/١٩٦٩م وقائـع الرحلـة الملكيـة التـي كتبهـا وأعدهـا يوسـف ياسـين في عـام (١٣٤٣هـ/١٩٢٤م). وفي عـام (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) قامـت جامعـة الإمـام محمـد بـن سـعود الإسـلامية بإعـادة طباعـة الرحلـة الملكيـة نفسـها، وفي عـام (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) أضـافت الجامعـة ثـلاث رحـلات أخـرى سـبق نشـرها في جريـدة أم القـرى إلى الرحلـة الملكيـة، ونشـرتها في كتـاب واحـد، ثـم قامـت دارة الملـك عبدالعزيز بإعـادة طباعة هذا الكتاب بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، وتم نشره عام (١٤١٩هـ)، ويقع في (١٦٠ صفحة) من القطع المتوسط.

(٢) انظر، يوسف ياسين، الرحلات الملكية، ٦٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٠-٦١.

(٤) المصدر نفسه، ص٦١.

والأستاذ فؤاد حمزة، يعرف باسم فؤاد بك حمزة، ويكنى (أبو سامر) ولد في لبنان في محافظة الجبل عام (١٣٨٧هـ/١٨٩٩م) لأسرة درزية يقال إنها تعود إلى جذور قحطانية من عرب الجنوب، عمل معلماً في القدس ودمشق، ويجيد اللغة الانجليزية، زكاه شكري القوتلي عند الملك عبدالعزيز فعمل مترجماً خاصاً للملك، ثم تولى أعمال مديرية الشئون الخارجية ثم وكيلاً للشئون الخارجية، ومنح لقب سفير، ثم وزير دولة، وعين وزيراً مفوضاً في باريس وأنقرة ثم أصبح مستشاراً للملك عبدالعزيز، وقام برحلات ومهمات دبلوماسية داخل الجزيرة العربية وخارجها، وسافر إلى قارتي أوربا وأمريكا للتعريف بسياسة المملكة العربية السعودية ومنهجها، كما شارك في مفاوضات المملكة العربية السعودية واليمن الخاصة بالحدود والعلاقات السياسية في ما بين البلدين وكانت وفاته عام (١٣٧١هـ/١٩٥١م). له عدد من المؤلفات، منها: (١): قلب الجزيرة العربية (٢) البلاد العربية السعودية (٣) في بلاد عسير، وقد صدر في طبعتين (١٩٥١م، ١٩٦٨م) [١].

وفي كتابه (في بلاد عسير) نجده يكتب مشاهداته في البلاد الممتدة من شمال وشرق حاضرة الطائف إلى مناطق عسير ونجران في أرض السروات[٢].

ولم يدخل مدينة الطائف في هذه الرحلة، لكنه اجتاز بعض أجزاء منطقة الطائف الشمالية والشرقية، وتوقف في أرض عكاظ، ووقف على بعض معالمها، وقرأ عنها في بعض المصادر، وقال إنه كان غير متأكد عن موقع سوق عكاظ، ولكن في تلك الرحلة تحقق من مكان هذا السوق، ووعد بإصدار بحث يحدد فيه موقع هذا السوق الجاهلي[٣]. ويذكر مواقع أخرى في أطراف منطقة الطائف من الشرق والشمال الشرقي مثل: آبار القرشية وسهل ركبة، وأغلب حديثه عن المعالم الجغرافية في هذه النواحي كالأودية، والجبال، والهضاب، ولم يذكر تفصيلات أخرى تخدم الباحث في الجوانب السياسية، أو الإدارية، أو الاقتصادية، أو الاجتماعية، أو حتى التركيبة السكانية. وكان مروره في هذه البلاد خلال الخمسينيات من القرن الهجري الماضي، بعد أن أصبحت عموم الحجاز جزءاً من المملكة العربية السعودية التي يتولى حكمها الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل (يرحمه الله) [٤].

---

(١) انظر هذا الكتاب الأخير، (في بلاد عسير) (الرياض: مكتبة النصر الحديثة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ص ٣-٤.
(٢) فؤاد حمزة. في بلاد عسير (الطبعة الثامنة /١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ص ١٢ وما بعدها.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٩-٢١.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٨-٢٤.

١٨- تويتشل، وايجرونا كانوا اليباني، ومحمد عمر رفيع (ق١٤هـ/ق٢٠م):

السيد كارل تويتشل، مهندس معادن أمريكي، وصل إلى جدة بواسطة تشارلز كرين(Charles R. Crane) [١] عام (١٣٥٠هـ/١٩٣١م)، وأسس نقابة التعدين العربية السعودية التي قامت بالتنقيب عن معادن الذهب والفضة في الحجاز وغيرها من بلدان الحكومة السعودية[٢]. وقد جاب هذا الخبير معظم مناطق المملكة، وكتب صوراً من تاريخها، كما حظي بالرعاية من الملك عبدالعزيز وحكومته أثناء إقامته في هذه البلاد، وله بحوث ودراسات عديدة، وكتابه الذي اعتمدنا عليه في دراستنا، هو: المملكة العربية السعودية وتطور مصادرها الطبيعية، نشر باللغة الانجليزية عام (١٩٤٦م)، ثم أعاد طباعته عام (١٩٥١م)، وترجمه إلى العربية الأستاذ شكيب الأموي، وقدم له الشيخ حافظ وهبة، ونشر عن طريق دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة عام (١٩٥٥م)، وهذه النسخة التي رجعنا لها في هذا البحث[٣]. ويشتمل الكتاب على محاور عديدة توضح صوراً من التطور الحضاري الذي مرت به المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل[٤]. وأفرد تويتشل محوراً مستقلاً في كتابه أسماه (المراكز الحيوية للحياة القومية)، بدأه بالحديث عن مكة، ثم المدينة المنورة، ثم الطائف[٥] التي قال عنها: "إن موقعها ينشرح له الفؤاد، ويبتهج له الخاطر، وهي على علو (٥١٠٠) قدم فوق سطح البحر، ويقدر عدد سكانها بـ (٧٠٠٠) نسمة[٦]،

---

(١) تشارلز كرين: من رجال الأعمال الأمريكيين العاملين في المجالات الإنسانية والمساعدات، اختاره الرئيس الأمريكي ويلسون عام (١٣٣٨هـ/١٩١٩م)، للمشاركة في لجنة البحث والتقصي التي أدت إلى نظام الانتداب في سوريا وفلسطين والعراق، خصص مساعداته للدول المحتاجة في الشرق الأوسط، وكانت له جهود انسانية في اليمن، التقى بالملك عبدالعزيز لأول مرة في فبراير عام (١٣٥٠هـ/١٩٣١م)، ونتج عن ذلك أن أرسل كرين تويتشل إلى المملكة للبحث عن المياه والمعادن. للمزيد انظر: فلبي، مغامرات النفط العربي، ص ٥٤.

(٢) تحدث تويتشل عن رحلاته وتجاربه حول مسح مناطق التعدين في الحجاز ونجد ذلك في كتاب: مناجم الذهب القديمة في الحجاز ونجد، والمطبوع عام (١٩٣٢م). وقد زار مناجم عديدة في جنوب مدين، والمدينة المنورة، والطائف ومهد الذهب، والدوادمي وغيرها. انظر فلبي، مغامرة النفط العربي، ص ٥٤.

(٣) الكتاب في نسخته العربية يقع في (٣١٦) صفحة من القطع المتوسط بالإضافة إلى ملاحق عديدة من الخرائط والصور الفوتوغرافية.

(٤) تويتشل، المملكة العربية السعودية، ص ١٣ وما بعدها.

(٥) تحدث هذا الرحالة عن معظم مدن المملكة العربية السعودية التي شاهدها وتجول في ربوعها، مثل: جدة، وينبع، والوجه، وأبها، وجازان، والقنفذة، ونجران، والرياض، وبريدة، وعنيزه، وحايل، والهفوف (الإحساء) والظهران، والقطيف، والدمام، والخبر. انظر: تويتشل، المملكة العربية السعودية، ص ٦٩-٩١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٧١. هذا العدد ربما يكون غير دقيق، ويفضل دراسة تاريخ التطور السكاني في الطائف منذ بداية الدولة السعودية الحالية إلى وقتنا الحاضر.

وهي عاصمة الحجاز في الصيف، ومقر النائب العام الأمير فيصل عادة من إبريل إلى أكتوبر، وهو يملك مزرعة ناجحة في الحوية، وتبعد (١١) ميلاً للشمال من المدينة، وينمو فيها البرتقال و (الجريب فروت)، والليمون، والكمثرى، والدراق، وتزرع في المزارع الصغيرة والحقول المحيطة بالطائف كميات كبيرة من البرسيم والحبوب الأخرى، وتنقل الجمال إلى مكة والمدينة، الكثير من العنب اللذيذ الطعم الحلو المذاق الطيب النكهة، والمساحة الواسعة التي تتبع هذه المدينة تتصف بالمزية الاقتصادية وتؤهلها لتكون سوقاً واسعة وعظيمة[١]. ومنتوجاتها تشمل (البيادي) الصوفية، وكذلك المفارش (البسط)، والسجاجيد الصوفية المغزولة، والماعزية الشعر، وتجري المياه من الآبار في نبع عذب رقراق (عين جارية) [٢]. وتباهي المدينة بنزل (أوتيل) مريح مرتب للحكومة، ويربط الهاتف (التليفون) كل دوائر الحكومة، وكذلك الكثير من البيوت الخاصة، وبعض عماراتها من حجر الجرانيت، ويؤخذ من محاجر تقع في نقطة الجنوب الغربي من المدينة[٣]. ومن أهم هذه العمارات قصر (شبرا) الذي يبعد نصف ميل خارج سور المدينة، بناه الأتراك حين كانوا مسئولين على الحجاز، ويتكون من ثلاثة طوابق، وارتفاع سقوف حجراته الرحبة، ويبلغ حوالي (١٦) قدماً تكتنفها الحدائق[٤]. ويلاحظ بدء تشييد بيوت حجرية صغيرة في أحياء المدينة، مما يدل على زيادة عدد المصطافين الذين يهرعون من مكة وجدة ومن كل جهة للاستمتاع بهذا المصيف الجميل الرائع"[٥]. ويشير تويتشل إلى مساجد الطائف وبخاصة مسجد ابن عباس، ويعبر عن إعجابه بهذه المدينة الحضارية[٦].

أما ايجيرونا كانوا الياباني فهو ياباني الجنسية، درس وتخرج في جامعة أوساكا للغات الأجنبية، قسم اللغة الألمانية، والتحق بالعمل في وزارة الخارجية سنة (١٣٥٢هـ/١٩٣٣م)، ثم سافر إلى القاهرة، وأقام فيها سبع سنوات، درس في الأزهر

---

(١) المصدر نفسه، ص ٧١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧١.

(٣) معظم بلاد الطائف وبخاصة جبالها وأوديتها يوجد فيها صخور وأحجار كثيرة ومتنوعة ومعظمها يصلح للبناء والتشييد.

(٤) قصر شبرا من العمارات التاريخية في الحجاز ويستحق أن يفرد له كتاب أو رسالة علمية تؤرخ لهذا المعلم الحضاري منذ تأسيسه إلى اليوم.

(٥) انظر تويتشل، المملكة العربية السعودية، ص ٧١-٧٢. وأقول إن أهمية الطائف السياحية، وصلات أهل مكة وجدة بهذه المدينة، وإقامتهم فيها خلال الصيف من الموضوعات القيمة التي يجب دراستها منذ صدر الإسلام إلى وقتنا الحاضر، ونأمل من طلاب قسم التاريخ في برنامج الدراسات العليا، في جامعتي الملك عبدالعزيز أو أم القرى أن يلتفتوا إلى مثل هذا العنوان الجدير بالبحث والدراسة والتوثيق.

(٦) تويتشل، المملكة العربية السعودية، ص ٧٢.

وفي جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة)، ويقال إنه عمل أستاذاً بجامعة أوساكا. ويتحدث هذا الرحالة عن ظروف رحلته إلى المملكة العربية السعودية عام (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م)، فيذكر أن حافظ وهبة سفير المملكة العربية السعودية في بريطانيا زار اليابان في مايو (١٩٣٨م) لحضور حفل افتتاح مسجد طوكيو الذي تم تشييده في إحدى نواحي العاصمة اليابانية، وحث الشيخ وهبة وزارة الخارجية اليابانية على إرسال وفد ياباني إلى المملكة العربية السعودية، لدعم الروابط بين البلدين، عندئذ استجابت الوزارة اليابانية لهذه الدعوة وأرسلت وفداً يتكون من ثلاث شخصيات يابانية، وكان ايجيرونا واحداً من أولئك الثلاثة، وكان يعمل وقتها في السفارة اليابانية في القاهرة. ويذكر سفره مع رفاقه من القاهرة إلى جدة في الرابع من صفر عام (١٣٥٨هـ/ السادس والعشرين من مارس سنة ١٩٣٩م)، ثم سفرهم من جدة براً إلى الرياض وبقوا فيها عشرة أيام، ومن خلال هذه الجولة في أجزاء من المملكة العربية السعودية دون ايجيروناكانو رحلته مع رفاقه، وأسماها: يوميات رحلة في الجزيرة العربية، وذلك بعد عودته من الرياض سنة (١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م)، ونشرت هذه اليوميات باللغة اليابانية على هيئة حلقات في مجلة كايكوسيكاي، أي (مجلة العالم الإسلامي)، وفي الفترة الممتدة من غرة رمضان عام (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م)، وحتى شهر المحرم (١٣٦٠هـ/١٩٤١م)، ثم جمعت هذه المقالات في كتاب ونشرت عام (١٣٦٠هـ/١٩٤١م) في مدينة طوكيو باليابان[١].

وقد قامت سارة تاكاهاشي بترجمة الكتاب تحت عنوان: الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م)، وقامت دارة الملك عبدالعزيز بطباعة هذه الرحلة ونشرها بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية[٢]. والكتاب يحتوي على مشاهدات هذا الرحالة في الأيام العشرة التي قضوها في الرياض، وأيضاً ما شاهده في الطريق البرية التي سلكوها من جدة إلى الرياض. كما يوجد في الكتاب عدد من الصور الفوتوغرافية التي التقطها ايجيروناكانو أثناء رحلته، ونجد أن رحلته مثل رحلتي يوسف ياسين وفؤاد حمزة فلم يدخل الطائف، وإنما جاء من أطراف المنطقة الطائفية من جهة الشمال عندما سار من جدة إلى عشيرة ووادي السيل وقريباً من عكاظ، فأشار إلى هذ الأمكنة، ولم يذكر شيئاً من طبيعتها الجغرافية، أو حياة سكانها، وإنما جل حديثه عن تحركاته مع رفاقه اليابانيين أو من كان في معيتهم من السعوديين لحمايتهم والقيام

(١) انظر مقدمات الرحلة في نسختها العربية، والتي اشرفت دارة الملك عبدالعزيز على ترجمتها وطباعتها عام (١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص٧-١٥.

(٢) هذه النسخة العربية تقع في (١٨٩) صفحة من القطع المتوسط وهي الطبعة الثانية عام (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

على خدمتهم، فذكر بعض الأطعمة التي قدمت لهم في وادي السيل، وكانت موادها في السيارات التي رافقتهم من جدة إلى الرياض، كما ذكر جودة الخدمات التي قدمها رفاقهم الذين سافروا معهم من الحجاز إلى الرياض، كما أثنى على كرمهم ولطف معشرهم وتفانيهم في توفير الهدوء والراحة له ولرفاقه اليابانيين[١].

والرحالة محمد رفيع من أهل الحجاز، وهو محمد بن عمر بن بكر بن عبدالكريم رفيع، ولد في مكة المكرمة عام (١٣١٧هـ/١٨٩٩م)، وكان والده أحد أعيان مكة، تلقى محمد تعليمه في الكتاتيب، وفي حلقات المسجد الحرام، ولا نجد معلومات واضحة عن بداية حياته، إلاّ أنه كان مولعاً بفن الزخرفة، ويظهر ذلك في بعض اللوحات والرسومات الفنية التي رسمها أثناء إقامته في مكة المكرمة ومنطقة عسير[٢]. وكان محمد رفيع يحب الرحلات فزار بلداناً عديدة في العالم مثل: الهند، وجزر الملايو، ومصر، وفلسطين، وسوريا، ولبنان، والعراق، وتركيا، والكويت، واليونان، وغيرها. ولم يتوقف عن السفر والترحال إلاّ سنة (١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م)، وهذا ما ذكره في بعض كتبه ومذكراته، وذلك بسبب الحروب التي كانت جارية في ذلك الوقت[٣]. ونتيجة لهذا التوقف رشحه السيد محمد شطا المفتش الأول بمديرية المعارف العامة مديراً لمدرسة رجال ألمع في منطقة عسير، التي تقرر فتحها عام (١٣٥٩هـ/١٩٤٠م)[٤]، وقد سافر ابن رفيع إلى عسير في العاشر من ذي القعدة (١٣٥٩هـ/١٩٤٠م) وظل في بلاد رجال ألمع إلى عام (١٣٦١هـ/١٩٤٢م)، ثم عاد إلى مكة، وانتقل إلى القاهرة للعمل في بعض الأعمال الحكومية السعودية هناك، ثم عاد إلى مكة وعمل آخر حياته في رابطة العالم الإسلامي، وافته المنية في مكة المكرمة عام (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م). وله

---

(١) انظر ايجيروناكانو، الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية (النسخة العربية) (الطبعة الثانية/١٤١٩هـ/١٩٩٩م). ص ٢٧-٤٠، وأعتقد أن هذا الرحالة الياباني وهذه الرحلة التي دونها هي أول رحلة يابانية مكتوبة تصل إلينا، ولا يستبعد أن يكون هناك رحلات أخرى قد ترى النور في المستقبل.

(٢) كان محمد عمر رفيع صاحب خط جميل، وله دراية بالرسم وفنون الزخرفة. انظر ترجمته، غيثان بن علي بن جريس. تاريخ التعليم في منطقة عسير (١٣٥٤هـ-١٣٨٦هـ/١٩٣٤-١٩٦٦م). (الرياض: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، جـ١، ص٥٨-٨٩-٢٥٤-٢٥٦.

(٣) من يقرأ التاريخ في بدايات النصف الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م) يجد أن هناك حروباً عديدة بين بعض الدول الأوروبية، أما بلدان الشرق الأوسط فكانت في نضال وصراعات دائمة ضد المستعمرين الأوروبيين، وأحوال الجزيرة العربية كانت هي الأخرى تعيش في اشكالات وصراعات، والمملكة العربية السعودية تعمل جاهدة على توطيد الأمن والاستقرار في ربوعها أثناء حكم الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل وبخاصة في الخمسينيات والستينيات من القرن (١٤/٥١هـ/٢٠م).

(٤) للمزيد عن تاريخ التعليم في منطقة عسير، انظر ابن جريس، تاريخ التعليم في منطقة عسير، جـ١، ص ٥١ وما بعدها.

بعض المؤلفات، ومنها: مكة في القرن الرابع عشر الهجري، وفي ربوع عسير ذكريات وتاريخ، وفي الكتاب الأخير نجد هذا الرحالة والمعلم يسافر من مكة عبر بلدة الزيمة ووادي السيل حتى الطائف، ثم يواصل سيره مع بعض الرفاق إلى أبها ثم رجال ألمع[١].

ونجد ابن رفيع يسلك الطريق التي سلكها فؤاد حمزة حتى وصل بلاد عسير، وقد زار أجزاء عديدة في منطقتي عسير وجازان مثل: أبها، ورجال ألمع، وتنومة، والنماص، ومحائل، والدرب، وبيشة، وصبيا، وجازان[٢]. أما بلاد الطائف فقد خرج من مكة يوم الاثنين (١٣٥٩/١١/١٠هـ/١٩٤٠م) وواصل السير مع بعض الرفاق حتى وصل الطائف في مساء ذلك اليوم. وقضوا وقت الليل في الطائف، وذكر الأستاذ ابن رفيع شيئاً من صفات الطائف مثل: جودة الهواء، وكثرة الفواكه، والخضروات في أسواقها، ونقلٍ من معجم ياقوت الحموي (البلدان) بعض المعلومات عن جغرافية الطائف وصوراً من تاريخها الحضاري[٣]. وأشار إلى بعض الاستراحات (والقهاوي) البسيطة في الطائف، التي يتخذها بعض المسافرين أماكن للإقامة والنوم، وهذا ما فعله محمد رفيع حيث سكنوا في قهوة ابن صادق[٤]، التي عانوا فيها من حشرة (البق) التي أكلت جلودهم أثناء النوم، ويذكر أن الطائف كانت خالية من الفنادق والنزل الجيدة والنظيفة، وفي الصباح واصلوا السير عبر وادي لية إلى تربة ورنية حتى وصلوا إلى أبها[٥].

١٩- فؤاد شاكر، ومحمد رفعت المحامي، ولفرد تسيجر، وليبنز (ق١٤هـ/ق٢٠م):

ولد فؤاد إسماعيل شاكر في مكة المكرمة عام (١٣٢٢هـ/١٩٠٤م)، وتلقى تعليمه الابتدائي بها، سافر إلى القاهرة لإكمال دراسته، وكان مع أول بعثة سعودية عام (١٣٤٧هـ/١٩٢٨م)، تلقى تعليمه الجامعي في القاهرة، وتخصص في دراسة الأدب العربي، أصدر جريدة (الحرم) بالقاهرة عام (١٣٤٩هـ/١٩٣٠م)، وظل يصدرها أربع سنوات. تسلم مهام رئاسة تحرير جريدة (صوت الحجاز) عام (١٣٥٠هـ/١٩٣١م)

---

(١) انظر كتاب: محمد عمر رفيع: في ربوع عسير (ذكريات وتاريخ) (الطائف: مكتبة المعارف، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م)، ص ٢ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥-٦.

(٤) لا نعرف شيئاً عن ابن صادق، ولكن ربما يكون أحد رجالات منطقة الطائف، وصاحب هذا المقهى.

(٥) المصدر نفسه ص ٧، ٨ وما بعدها. وأذكر أنني ذهبت إلى الطائف في بدايات التسعينيات من القرن (١٤هـ/٢٠م)، فكانت قهاوي وأماكن النوم والإستراحة فيها بسيطة ومتواضعة، ولا تخلو ذلك الوقت من فنادق جيدة وجميلة، لكن لا يسكنها إلا المقتدر مادياً، وكان المال عند عامة الناس قليلاً.

لمدة سنة واحدة عاد بعدها للقاهرة، حيث استأنف دراسته وأعماله الصحفية، تسلم رئاسة تحرير (أم القرى) في عام (١٣٥٥هـ/١٩٣٦م)، وظل بها مدة (١٥) عاماً، وتولى أثناء ذلك رئاسة تحرير جريدة (صوت الحجاز) جريدة (البلاد) السعودية فيما بعد من عام (١٣٥٧هـ-١٣٦١هـ/١٩٣٨-١٩٤٢م)، وفي عام (١٣٦٤هـ / ١٩٤٤م) عين رئيساً للتشريفات الملكية وبقي في منصبه حتى عام (١٣٧٢هـ/١٩٥٢م)، وفي عام (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م)، أسندت إليه رئاسة تحرير جريدة (البلاد) السعودية، وفي عام (١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م) عمل رئيساً للتشريفات برابطة العالم الإسلامي، وفي عام (١٣٨٥هـ/١٩٦٥م) أسندت إليه رئاسة تحرير جريدة (أخبار العالم الإسلامي)، حصل على العديد من الأوسمة والنياشين من دول عربية شقيقة وأخرى صديقة، وكانت وفاته عام (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)، وله مؤلفات عديدة، ومنها كتاب: رحلة الربيع[١]، وهو البحث الذي يهمنا في هذه الدراسة. وكتاب (رحلة الربيع) طبع لأول مرة عام (١٣٦٥هـ/١٩٤٥م)، وموضوعات هذا الكتاب تدور حول رحلة المؤلف عام (١٣٦٠هـ/١٩٤١م) من مكة المكرمة إلى روضة الخفس ثم الخرج فالرياض. ويعد هذا المؤلف من الأعمال العلمية الأدبية المبكرة التي امتزج فيها علوم الأدب والفكر والجغرافيا والتاريخ[٢]، ومن أهم مراحل هذه الرحلة أيضاً مقابلة المؤلف وأعضاء الرحلة بالملك عبدالعزيز في روضة الخفس، ووصف تلك المقابلة وما جرى فيها من أحاديث ومشاعر ومواقف[٣].

وكتاب: رحلة الربيع، يقع في (٢٤٥) صفحة من القطع المتوسط، وقد سلك المؤلف ورفاقه أعضاء الرحلة الطريق التي تخرج من مكة إلى الشرائع، ثم وادي السيل الكبير، ثم عشيرة، وواصلوا المسير إلى أرض نجد. ولم يمروا بالطائف وإنما نزلوا في وادي السيل الكبير، ويذكر هذا الرحالة صوراً من جغرافيته، فيقول: "هو الوادي الجميل الذي يقع في سطح مرتفع كبير يبتدئ من عشرين كيلو متراً في الصعود، وهو محاط بسلسلة تكوّن شبه استدارة من الجبال المحيطة به، وصار الوادي

---

(١) انظر للمزيد عن ترجمة فؤاد شاكر في هذا الكتاب، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز عام (١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص ٨

(٢) دراسة علم الرحلات في الجزيرة العربية من الموضوعات الجديرة بالبحث والدراسة، وهو يستحق أن يدرس في عشرات البحوث العلمية الموثقة.

(٣) كان أعضاء الرحلة: فؤاد شاكر، مؤلف كتاب الرحلة، والسيد صالح شطا، النائب الثاني لرئيس مجلس الشورى، والشريف شرف رضا، عضو مجلس الوكلاء، وعبدالرؤوف الصبان، عضو مجلس الشورى ورئيس مجلس المعارف، والشيخ عبدالله الشيبي، عضو مجلس الشورى والسادن الثاني لبيت الله الحرام، والسيد عبدالوهاب، نائب الحرم ومدير الأوقاف، والشيخ عباس قطان، أمين العاصمة، والسيد عبيد مدني عضو مجلس الشورى. انظر، فؤاد شاكر، رحلة الربيع، (طبعة /١٤١٩هـ / ١٩٩٩م)، ص ٧، ٢٣-٢٤.

مصباً للأمطار المنهمرة على تلك الجبال ومسيلاً لها، ولذلك عرف باسم السيل، ذلك بأن مجرى ماء السيل لا يكاد ينقطع منه أكثر أيام السنة، وفيه قليل من المزارع والحدائق المثمرة، وعلى بعد عشرات قليلة متفاوتة من الأميال توجد مزارع وحدائق أخرى مثمرة أكثر منه اتساعاً وثمراً، ومن أبرز ثمره نوع من الثمر يسمى (رطب العقرب) واحدته تشبه الخيارة المكورة... والسيل واد جميل المناخ، وقد قيل عنه إنه منزل سوق عكاظ..."[١].

أما محمد رفعت المحامي، فهو صحفي مصري، من مواليد القاهرة عام (١٣٣٦هـ/١٩١٧م)، تخرج في كلية الحقوق، واشتغل بعد تخرجه في المحاماة، ثم عمل في الشرطة، وكان يمارس التمثيل والكتابة والصحافة، وأخيراً تفرغ للعمل الصحفي، وعمل في مواقع صحفية عديدة حوالي خمسة عقود، واشتغل بالقراءة والتأليف فله حوالي (٥٠) كتاباً، بالإضافة إلى رئاسة تحرير مجلة طبيبك، وهي مجلة رائدة في التوعية الصحية. وعمل أيضاً في مجلة المصور، وزار المملكة العربية السعودية عام (١٣٦٧هـ/١٩٤٧م)[٢]، وقابل الملك عبدالعزيز أكثر من مرة، وحضر مجالسه، واستمع إلى أحاديثه، وقابل عدداً من الأمراء والوجهاء في السعودية، وزار عدداً من مدن المملكة، واطلع على كثير من مشروعات التنمية في الحواضر التي زارها، وقد ترجم ما سمعه ورآه في سلسلة من المقالات ونشرها آنذاك في مجلة المصور، وأشار خير الدين الزركلي إلى هذه المقالات في كتابه: شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، ص (١٣٢٩-١٣٣٠)، ثم نشرها صاحبها في كتابه الذي أسماه: أسد الجزيرة قال لي[٣]، وقدم لهذا الكتاب صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبدالعزيز، والكتاب يحتوي على تفصيلات جيدة فلا نجدها في مصادر ومراجع أخرى، ويقع في (٢٤٢) صفحة من القطع المتوسط، وفيه عدد من الصور الفوتوغرافية القيمة[٤]. وكتب هذا الرحالة

---

(١) انظر فؤاد اسماعيل شاكر. رحلة الربيع، ص ٢٣-٢٤. وهناك دراسات عديدة حول موقع سوق عكاظ، وليس في وادي السيل كما ذكر هذا الرحالة وغيره، وإنما يقع في مفيض بعض أودية الطائف عند اتصالها بصحراء ركبة، ويبعد عن الطائف شمالاً حوالي (٤٠-٥٠) كيلا.

(٢) كان سبب زيارة محمد رفعت المحامي إلى المملكة عندما دعته شركة مصر للطيران مع بعض المصورين المصريين للاشتراك في افتتاح خطها الجوي الجديد بين القاهرة وجدة، وكان مندوباً عن مجلة المصور المصرية، وكان عليه أن ينجز مهمته ويعود إلى مصر سريعاً لكن وزير المالية السعودي آنذاك عبدالله السليمان، دعاه باسم الحكومة لزيارة جميع مدن المملكة، ويكون في ضيافة الملك عبدالعزيز، فوافق على هذا العرض، ونتج عن ذلك صدور كتابه (أسد الجزيرة قال لي).

(٣) من تأليف محمد رفعت المحامي، ومراجعة وتعليق الدكتور حمد بن ناصر الدخيل، إصدارات مكتبة الملك عبدلعزيز العامة، بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية. (الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) (الطبعة الثانية) ص٥ وما بعدها.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٨ وما بعدها.

عنواناً جانبياً في كتابه، أسماه: الطائف مصيف الجزيرة العربية، وقال: "الطائف واحة في وسط الصحراء، وواد بين سلاسلٍ الجبال، جنة صغيرة من جنات الأرض، يهرع إليها أفراد الأسرة المالكة والشعب معاً في أشهر الصيف (القيظ)، فينعمون بها بعليل النسيم، وخيرات أرضها المباركة، ويجدون هناك ما ينشدونه من راحة واستجمام[١]. وليست شهرة الطائف بقاصرة على أنها مصيف الجزيرة العربية، بل إنها قبل هذا معقل الجيشٍ العربي السعودي الباسل، مدينة الجيش، فيها يتدرب أشباله حتى يخرجون أسوداً ضواري يحملون راية الإسلام، ويشهرون سيوفهم في وجوه أعدائه وخصومه[٢]. وللطائف فوق هذا كله شهرة أخرى في ميدان العلم، ففيها معهدان من أشهر المعاهد العلمية في الجزيرة العربية، وأعظمها، المدرسة النموذجية، ودار التوحيد[٣]. والمدرسة النموذجية أمر بإنشائها سمو الأمير فيصلٍ، ليتعلم فيها أبناؤه مع أبناء الشعب جنباً إلى جنب دون فوارق أو فواصل، وهي تشغل داراً فخمة كبيرة، مكونة من حوالي الأربعين غرفة، منها صالون كبير للاستقبال، وعنابر لنوم طلبة القسم الداخلي والأساتذة والمدير، ثم غرف للدراسة ومخازن[٤]. ونظام المدرسة داخلي وخارجي، وفيها (٢٤) في القسم الداخلي، و(٢٦) في القسم الخارجي، ويتبع الجميع نظاماً واحداً ومنهجاً واحداً في الدراسة هو منهج الدراسة الابتدائية في مصر نفسه مع زيادات في علوم الدين[٥]. ويقبل في هذه المدرسة الطلبة من سن السادسة حتى السنة الثانية عشرة من أبناء الشعب كافة، دون تمييز بين طبقة وأخرى، لتغرس في الجميع روح المحبة والاخاء والمساواة والديمقراطية الحقة، وجميع تلاميذ هذه المدرسة متساوون في تطبيق نظام المدرسة[٦]. أما دار التوحيد فمؤسسة منذ عام (١٣٦٥هـ/١٩٤٥م) للتخصص في تدريس العلوم الدينية والقضائية، ويديرها آنذاك مدير المعارف الشيخ محمد بن مانع، وهي مدرسة ممتازة في أساتذتها وتعليمها. وللطائف منزلتها ومحبتها في قلب كل سعودي، ويقضي فيها أسد الجزيرة (الملك عبدالعزيز) أحياناً بعض أشهر الصيف للراحة والاستجمام[٧].

---

(١) تظهر بصمة الكاتب الصحفية على هذه العبارات، فهو ينمق مفرداته وجمله، وهذه وظيفة أهل الصحافة.
(٢) انظر محمد رفعت المحامي. أسد الجزيرة قال لي، ص ٩٧.
(٣) المصدر نفسه، ص ٩٧.
(٤) المصدر نفسه، ص ٩٧.
(٥) المصدر نفسه، ص ٩٧-٩٨.
(٦) المصدر نفسه، ص ٩٨.
(٧) المصدر نفسه، ص ٩٨.

ولفرد ثسيجر، رحالة انجليزي، من أهل القرن (١٤هـ/٢٠م) ولد في أديس أبابا عام (١٣٢٨هـ / ١٩١٩م)، ودرس في جامعة أكسفورد، قام بعدد من الرحلات في بلدان عديدة، ومنها الجزيرة العربية، وفي عام ١٣٦٥هـ/ م) قام برحلة في بلاد تهامة والسراة، ودون تفصيلات عن المجتمعات التي زارها، حصل على إذن من الملك عبدالعزيز لدراسة أوضاع الجراد الذي اجتاح نواحي عديدة من الجزيرة العربية، وكان لذلك الإذن الأثر الكبير في تسهيل مهمته وحصوله على مساعدات وتسهيلات كثيرة من أمراء وأعيان المناطق التي مر عليها. دون هذا الرحالة رحلته في جنوب البلاد السعودية، ونشرها عام (١٣٦٧هـ/١٩٤٧م) في مجلة علمية جيدة، هي: المجلة الجغرافية التي تصدرها الجمعية الجغرافية في لندن، وقام الدكتور أحمد بن عمر الزيلعي بترجمة هذه الدراسة، ونشرها في (مجلة الدارة) العدد (١) السنة (١٤) (شوال /١٤٠٨هـ ا لموافق مايو/١٩٨٨م) [١]. ويوجد في هذه الرحلة تفصيلات تاريخية وحضارية جيدة لا نجد مثيلها في أي مصدر آخر، وقد تجول هذا الرحالة في بلدان تهامة الممتدة من القنفذة إلى تهامة الباحة وعسير ثم إلى جازان، وعاد إلى أرض السراة فتجول في أنحائها من ظهران الجنوب جنوباً إلى الطائف[٢]. ويتحدث بشكل عام عن كثافة الغطاء النباتي والأشجار المتفاوتة في الكبر والصغر في جبال السروات الممتدة من بلاد قحطان في الجنوب إلى سروات الطائف[٣]. ويذكر بعض جبال بني سعد وبني مالك، الواقعة إلى الجنوب من الطائف، ويقول إن صخورها بركانية، وبعض قممها من الحجر الجرانيت[٤]، وعند خروج تشسيجر من أبها نحو الشمال يوجز الحديث عن البلاد السروية الواقعة بين الطائف وأبها[٥]، ولا يذكر أي تفصيلات عن حاضرة الطائف، غير قوله: "وصلنا الطائف في الرابع والعشرين من شهر يونيه، بعد أن غطينا من أبها (٣٠٠) ميل، قطعناها في (١٦) يوماً من السير، فقد وصلنا النماص في أربعة أيام، والظفير في ستة أيام أخرى، مضاف على ذلك ستة أيام إلى الطائف[٦]،

(١) انظر الدراسة نفسها في (مجلة الدارة) وعنوانها (رحلة في تهامة وعسير وجبال الحجاز) ص٩٣-١٢٣. وللمزيد عن الرحالة ولفرد ثسيجر، انظر، غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٣، ص٣٦٣، جـ٤، ص٥٨، جـ٥، ص ٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٣ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ١١٠-١١٢.

(٦) كانت السيارة هي وسيلة النقل، لكن الطريق من أبها إلى الطائف وعرة جداً، ولم تصبح هذه الطريقة سهلة ويسيرة إلا منذ بداية القرن (١٥هـ/٢٠م).

ويوجد قليلاً إلى الشرق من الظفيرة، طريق إضافي للجمال، يصل إلى الطائف في أربعة أيام ونصف، ولكنه يستلزم حمل الماء لمدة يومين، لأن الماء ضروري في كل مكان من هذه الجبال"[١]. ويواصل قوله عن سفرهم في جبل السروات، فيقول: "لقد سافرنا بجد، وبمعدل نحو عشر ساعات يومياً على الطريق، وبالرغم من أن طعامنا غير المتنوع كان يتكون من خبز البر المغموس في الزبد، وأحياناً صحن من التمر"[٢].

أما فيليب ليبنز فهو أحد الضباط البلجيكيين الذين كانت لهم مغامرات في بعض البلدان العربية[٣]، وهو واحد من الفريق العلمي الذي قاده فلبي للقيام برحلة في وسط وجنوب غرب الجزيرة، عام (١٣٧١هـ/ ١٩٥١م)[٤]. وأثناء رحلة ليبنز ورفاقه عبر بلاد السروات إلى نجران ثم إلى بلاد نجد، فقد ألف في ذلك كتاباً أسماه: رحلة استشكافية في وسط الجزيرة العربية، ونشره باللغة الفرنسية في خمسينيات القرن الميلادي الماضي، ثم قام الأستاذ الدكتور محمد محمد الحناش بترجمة النسخة الفرنسية الأصل إلى العربية، وذلك بطلب من دارة الملك عبدالعزيز، ونشرت النسخة العربية (التي تقع في ٢٧٥ صفحة من القطع المتوسط)، بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، وصدرت هذه الطبعة عام (١٤١٩هـ/١٩٩٩م)[٥]. وفي أوائل شهر سبتمبر عام (١٩٥١م) خرج ليبنز ورفاقه من جدة صوب الطائف، ولم يذكر لنا شيئاً عن وادي السيل الذي اجتازوه، وقد اختلفوا عن فؤاد حمزة الذي لم يدخل الطائف، وإنما سار من أجزائه الشرقية صوب تربة ورنية[٦]، أما ليبنز وفريقه فساروا حتى دخلوا الحوية التي تقع شمال مدينة الطائف، ولم يذكر شيئاً عن طبيعتها الجغرافية، أو تركيبتها السكانية، وإنما واصلوا سيرهم حتى دخلوا الطائف، وذكر ليبنز بعض مشاهداته المحدودة[٧]، فقال: "في الطائف كان يعيش عشرات من الجنود

---

(١) انظر شيجر، رحلة في تهامة وعسير وجبال الحجاز، ص ١١٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٢.

(٣) لم نجد تفصيلات واضحة عن بدايات تاريخ هذا الرجل، اللهم إلاّ أنه كان أحد الضباط البلجيكيين الذين قدموا إلى الشرق الأوسط، وله اهتمامات بالرسومات والآثار القديمة. انظر غيثان بن جريس. "بلاد عسير في كتابات فيلبي وفيليب لينز". هذه الدراسة منشورة في مداولات اللقاء العلمي الثالث لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون الخليجي (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص ٥٢٣ وما بعدها. والبحث نفسه منشور أيضاً في كتابنا: صفحات من تاريخ عسير، جـ٢، ص ٢٧٥، وما بعدها.

(٤) كان الفريق العلمي مكوناً من هارى سان جون فلبي، والأستاذ كونزاك رايكمانز، أستاذ اللغات السامية في جامعة لوفان، والسيد فيليب ليبنز، الخبير في تخطيط الرسوم وتصوير الآثار القديمة والنقوش، وجاك ريكمان، ابن أخي الأستاذ السابق، ومساعده في الفيلولوجيا والتاريخ الحميري والسبئي.

(٥) انظر الكتاب (النسخة العربية) (٢٧٥) صفحة.

(٦) فؤاد حمزة، في بلاد عسير، ص ١٢-٢١.

(٧) انظر ليبنز، رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية، ص٢٥-٣٠.

البريطانيين الذين يقومون بتدريب السعوديين في مخيم عسكري كبير، وقد استقبلونا بكل ترحاب مع مظهر لا يخفي فضولهم، كلهم يعرفون فلبي من خلال شهرته[١]، وقد غبطونا على دخولنا إلى أعماق بلد كان مغلقاً في وجههم[٢]. وعلى الرغم من انعدام الأشجار في الطائف[٣]، فإنها مع ذلك مدينة مهمة يصل سكانها إلى خمسين ألف نسمة، وقد كان عددهم قليلاً في الماضي[٤]، وتوجد بالطائف بعض المنازل الجميلة متعددة الألوان، وأسطحها مستوية، وهي مكونة من ثلاثة إلى أربعة أدوار، لكنها مع ذلك منازل متواضعة مقارنة بما شاهدناه في جدة"[٥]. ويذكر هذا الرحالة صوراً اقتصادية واجتماعية أخرى في الطائف، فيقول: "وفي أماكن متفرقة كان يوجد الشعير أو القمح الذي وصل حد السنبلة، وقد قمنا بزيارة أحد المواطنين الذي كان يصنع العسل الطبيعي. وفي المساء ذهبنا عند الأمير لتناول وجبة العشاء، وبمجرد دخولنا الديوان قمنا بخلع الأحذية، كما تتطلب ذلك المجاملات العربية[٦]. قدموا لنا القهوة العربية بالهيل والشاي المحلى بالعسل، كنا نتذوق هذه المشروبات ونحن جلوس فوق السجاد الذي كان يغطي الأرض اليابسة، وقد حمل أحد الخدم قارورة مستطيلة من الخشب (المبخرة)، أدخل فيها الأمير بعض الأعواد، وبالتناوب كنا نفتح الفترة من أجل تعطير جيد للحيتنا. ووضع الخدم على الأرض (٦٧) صحناً تتراوح بين قدور وآنية الشوربة، ولم يكن منها فارغاً، وذلك لعدم وجود صحون صغيرة خاصة بكل فرد، لقد امتلأت بخرفان مشوية بكاملها بما في ذلك رؤوسها بالإضافة إلى عجينة الحمص (الجريش)، كما قدم لنا عسل جيد وخبز ممتاز وتمر وموز، كل هذا من أجل أن تفتح شهيتنا، وقد كنا نغمس اللحم في العسل"[٧].

---

(١) نعم فلبي أصبح مشهوراً في عموم الجزيرة العربية، فقد دخلها وقابل الملك عبدالعزيز عام (١٩١٧م)، ثم استمر يتجول في أرجاء المملكة العربية السعودية حتى تاريخ رحلة ليبنز ورفاقه عام (١٩٥١م). وكتب مؤلفات كثيرة عن جزيرة العرب، وقابل أناس كثيرين، فكيف لا يكون معروفاً ومشهوراً؟

(٢) لينبز، رحلة استكشافية في وسط الجزيرة، ص ٣١.

(٣) منطقة الطائف غنية بأشجارها وغطائها النباتي، لكن ليبنز ورفاقه ربما جاءوا من طريق لا يوجد حولها نباتات أو أشجار.

(٤) نعم عام (١٣٧١هـ/١٩٥١م) ازداد عدد السكان في الطائف، لكن الرقم الذي ذكره ليبنز ربما يكون غير دقيق. انظر، ليبنز، ص٣٢.

(٥) رحلة استكشافية، ص ٣٢. جدة مدينة متحضرة وسكانها أكثر تمدناً وحضارة من الطائف التي معظم سكانها قبائل يغلب عليها الطابع الريفي أو البدوي.

(٦) انظر ليبنز، رحلة استكشافية، ص ٣٣.

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٣-٣٤.

٢٠- حمد الجاسر، ومحمود شاكر، وعاتق البلادي، وعبدالرحمن الشريف، (ق١٤-١٥هـ/ ٢٠-٢١م):

الجاسر: هو حمد بن محمد بن جاسر من أسرة آل جاسر المنتمية إلى بني علي من حرب. ولد عام (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م) في قرية البرود من إقليم السر في نجد من أب فلاح فقير. أدخله والده المدرسة، ثم انتقل به إلى الرياض عام (١٣٤٠هـ/١٩٢١م)، واستمر يتعلم مبادئ العلوم الدينية، ثم عاد إلى بلدة البرود عام (١٣٤٢هـ/١٩٢٣م)، وكان والده قد توفي، فتولى رعايته جده لأمه، وكان إمام مسجد قرية البرود، فاستمر هذا الشاب يساعد جده في إمامة المسجد إلى عام (١٣٤٦هـ/١٩٢٧م)، ثم أرسل مرشداً وإماماً لفخذ من قبيلة (عتيبة) تدعى الحواما من النفعه، وهم بدو رحل، فكان ينتقل معهم من مكان لآخر، وفي آخر عام (١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م) ذهب إلى الرياض وبدأ يتعلم على بعض المشايخ هناك، ثم ترك الرياض وذهب إلى مكة والتحق بالمعهد الإسلامي السعودي في مجال القضاء الشرعي، وعند إنهاء دراسته بالمعهد تحول إلى مهنة التعليم في ينبع، ثم صار قاضياً في ضبا عام (١٣٥٧هـ/١٩٣٨م). وفي عام (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م) التحق بكلية الآداب في جامعة القاهرة، لكنه لم ينه دراسته في هذه الكلية بسب الحرب العالمية الثانية التي جعلته يعود إلى وطنه، ثم عمل في أعمال تعليمية وإدارية عديدة، كان حريصاً دائماً على القراءة وكتابة بعض المقالات في عدد من المجلات والجرائد العربية، ومع اجتهاده ومثابرته على البحث والقراءة أصبح من أبرز العلماء الباحثين في العالم العربي، وصار عضواً في عدد من المجامع العلمية العربية، كما ساهم في تطوير الصحافة في المملكة العربية السعودية، وأنشأ اليمامة وهي أول صحيفة في الرياض عام (١٣٧٢هـ/١٩٥٢م)، ثم جريدة الرياض عام (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م)، وأخيراً مجلة العرب التي هو صاحبها ورئيس تحريرها. كما أنشأ أول دار للطباعة في نجد عام (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م)، وفي عام (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) أنشأ دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر. وله إسهامات عديدة وبخاصة في البحث والتأليف والتحقيق فأصدر عشرات الكتب والبحوث المتنوعة في موضوعاتها وأبوابها، ومعظمها تدور في فلك تاريخ وجغرافيا وأدب ولغة وتراث الجزيرة العربية[١].

ومن يطالع (مجلة العرب) التي أسسها وتولى رعايتها الشيخ الجاسر فإنه سوف يجد فيها مادة علمية جيدة عن تاريخ وتراث وأعلام وثقافة منطقة الطائف، وهذا

(١) هناك عشرات ا لكتب والمقالات التي ذكرت جهود الشيخ حمد الجاسر. وأقول ان هذه القامة العلمية تستحق أن يكتب عنها دراسة مطولة في عدة مجلدات توضح جهوده الثقافية والعلمية التي قدمها للعالم العربي والإسلامي وبخاصة ما يتعلق بتراث الجزيرة العربية.

الموضـوع لن ندرجه في بحثنا هذا[١]، وإنما نلقي نظرة على ما تم تدوينه عن أجزاء من الطائف عندما خرج في رحلة من الطائف عبر بلاد السـروات حتى وصـل بلاد الباحة (غامـد وزهران) عام (١٣٩٠هـ/١٩٧٠م)، ودون تفاصـيل تلـك الرحلة في كتابه الذي أسماه: في سـراة غامد وزهران (نصوص) مشاهدات، انطباعات[٢]. وفي القسم الأول مـن هذا الكتاب ذكر عنصـراً تحت عنـوان (بين الطائف والباحـة) وتحدث في بدايته الرغبـة التي كانت تعتريه وهو في الطائف، حيث يرغب السـفر والتجوال في السـروات الممتدة من الطائف إلى الباحة، واشـار إلى أهمية بلاد السـراة وذكرها عند المتقدمين من كتاب التراث، وعند التقائه بأحد أعلام الطائف وهو: الأستاذ محمد سعيد كمال[٣]، وذكر له تلك الرغبة، وكان الشعور الذي يعيشه ابن كمال ويريد تحقيقه، وهنا اجتمعت الرغبتان عند ابن جاسر وابن كمال وقررا السير براً من الطائف إلى الباحة[٤]، ويقول الجاسـر: "عقدنا العزم، وسرنا إلى موقف السـيارات المتجه إلى تلك الناحية (يقصد الباحة)، واسـتأجرنا سيارة صغيرة (بيجو).. وسـرنا من الطائف في الساعة الواحدة صـباح السـبت (١٣٩٠/٢/١٩هـ) مع طريـق معبد، وبعـد أن قطعنا منـه (١٣) كيلاً انحدرنا في وادي لية، من أودية الطائف المعروفة المشهورة بجودة الرمان، وله ذكر كثير في المؤلفات القديمة، وقد مر به رسول الله (ﷺ) في غزوته للطائف، وأمر بهدم حصن مالـك بن عوف، قائد هـوازن المقام في ذلك الوادي.."[٥]. ثم يواصـل حديثه عن ذكر أمكنة عديدة مروا عليها بعد وادي لية مثل: مظللة، وشقصان، ووادي الحميطه، ووادي الجبوب الذي يبعد عن الطائف نحو الجنوب (٨٠-٨٥) كيلاً، ويعرف هذا الوادي ايضاً باسـم (غزايل) ويقع في بلاد بلحارث[٦]. وعند وصول الجاسر إلى بلاد غامد وزهران أقـام عند أميرها سـعود بـن عبدالرحمن السـديري ثلاثة أيام وتنقـل في ربوع منطقة

---

(١) (مجلة العرب) عمل موسـوعي للشـيخ حمد الجاسر عن عموم الجزيرة العربية، ومن يبحث في هذه المجلة فإنه سـوف يجـد فيها الكثير من الموضـوعات والبحوث والدراسـات القيمة عن الطائف وغيرها مـن قرى، وبلدان، وقبائـل، وتاريخ، وجغرافية وحضـارة الجزيرة العربية. وأقـول إن هذه المجلة جديرة بالدراسـة والاهتمام من جميع المؤرخين والجغرافيين والباحثين في جامعاتنا ومراكز بحوثنا وأقسامنا العلمية.

(٢) انظر الكتاب الذي يقع في (٥٩٥) صفحة من القطع المتوسط (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م).

(٣) محمد سعيد كمال من أعلام الطائف وممن كتبوا عدد من البحوث والدراسات عن تاريخ وحضارة الطائف وهو ينتسب إلى الأسرة الكمالية في مدينة الطائف.

(٤) انظر حمد الجاسر، في سراة غامد وزهران، ص ٩-١٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٠.

(٦) المصدر نفسه، ص ١١-١٢.

الباحة وجمع مادة كتابه عنها، ثم عاد مع صاحبه ابن كمال إلى الطائف[١]، وذكر بعض التفصيلات عن فروع أودية شقصان، ومظللة، وكلاخ[٢].

اما محمود شاكر، فهو: أبو أسامة محمود بن شاكر ولد في حرستا بالشام شمال شرقي دمشق في شهر رمضان (١٣٥١هـ/١٩٣٢م)، تعلم في بلاد الشام، وحصل الشهادة الجامعية في قسم الجغرافيا بالجامعة السورية في دمشق عام (٣٦-١٣٧٧هـ/٥٦-١٩٥٧م)، التحق بالخدمة العسكرية الالزامية، وبعد أن قضاها، عاد إلى التدريس، وعمل في مناطق عديدة في سوريا، وكرس حياته للقراءة والاطلاع في تاريخ الأمة الاسلامية، ثم انتقل إلى المملكة العربية السعودية عام (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) وعمل في معاهد وكليات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض والقصيم وأبها، وكتب عشرات الكتب والبحوث في التاريخ العربي والإسلامي ومنها: موسوعة كتاب (التاريخ الإسلامي) ويقع في (٢٢) مجلداً، وسلسلة العالم الإسلامي، وسلسلة مواطن الشعوب الإسلامية في آسيا، وسلسلة مواطن الشعوب الإسلامية في أفريقيا، وسير بعض الصحابة، وسلسلة الخلفاء، وكتب عديدة في علم الجغرافيا، وفي التاريخ والفكر الإسلامي[٣]. وما يهمنا في هذا البحث هو كتاب: شبه جزيرة العرب (الحجاز)[٤]، وهذا المؤلف ضمن (سلسلة مواطن الشعوب الاسلامية في آسيا)، وحجمه صغير، ويقع في (٢٠١) صفحة، ومادة هذا الكتاب جغرافية وتاريخية من رحلات ومشاهدات وانطباعات، ولا يفرد لحاضرة الطائف مادة مستقلة، وإنما تحدث عنها ضمن حديث عام عن التركيبة الجغرافية والسكانية لمنطقة الحجاز (الطائف، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة) وما حولها، كما سرد بعض الاحداث التاريخية التي عاشها أهل الحجاز منذ عصور ما قبل الإسلام إلى القرن (١٤هـ/٢٠م)، واشار أيضاً إلى بعض الصور التاريخية الحضارية في حواضر الحجاز الكبرى[٥].

أما عاتق البلادي: فهو عاتق بن غيث بن زوير بن زائر بن حمود البلادي. والبلادية فرع من قبيلة حرب. ولد عام (١٣٥٢هـ/١٩٣٤م) في البادية شمال مكة في مكان يدعى (مسر) بسفح جبل يطلق عليه اسم (أبيض). ونشأ في البادية مع والده، بدأ دراسته

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٦، ١٩-٨٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٨-٨٢.

(٣) للمزيد يتم الاطلاع على كتبه المطبوعة والمنشورة، وبعضها تم طباعته مرات عديدة، وبعضها أيضاً تم وضعها على شبكة (النت)، وأصبحت كتباً رقمية الكترونية.

(٤) تم طباعة هذا الكتاب في (دمشق، المكتب الإسلامي، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)؛ ص ٩-١٩٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥ وما بعدها.

في مدرسة وادي خليص، وعند وفاة والده عام (١٣٦٤هـ /١٩٤٤م) تولى رعايته أحد أخواله، وعمل جمالاً، ثم انتقل إلى مكة، وعمل في بعض الأعمال البسيطة، ودرس في المدرسة السعودية وفي الحرم المكي، وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية، التحق بالجيش السعودي وتدرج في الأعمال العسكرية حتى حصل على رتبة ملازم (ضابط)، وسار مع الجيش السعودي الذي ذهب إلى الأردن أيام العدوان الثلاثي على قناة السويس عام (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م)، كما عمل في قطاعات عسكرية عديدة، وعمل في مدن عديدة مثل: تبوك، والطائف، والرياض، ومكة المكرمة، وصامطة في جازان. وحصل على العديد من الدورات العسكرية، وتقاعد من وظيفته عام (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م). اجتهد في حياته العلمية بالقراءة والاطلاع على العديد من الكتب والبحوث، وبدأ في كتابه مقالات في بعض الجرائد المحلية، ومجلتي المنهل والعرب منذ ثمانينيات القرن الهجري الماضين وحضر عدداً من الندوات والمؤتمرات المحلية والإقليمية، وكان عضواً في نوادي الطائف، ومكة المكرمة، وجدة الأدبية، وتم تكريمه في مناسبات علمية واجتماعية عديدة . وله عشرات الكتب المطبوعة والمنشورة، ومنها: (١) معجم معالم الحجاز (عشرة أجزاء) (٢) معالم مكة التاريخية والأثرية. (٣) المعالم الجغرافية في السيرة النبوية (٤) قلب الحجاز (٥) أشهر أودية الحجاز وروافدها وقراها وسكانها (٦) أودية مكة المكرمة. وله باع جيد في دراسة الأنساب وتتبع تاريخ القبائل وبخاصة في (الحجاز) كما ألف في الرحلات عدداً من الكتب، ومنها الكتاب الذي يهمنا في هذه الدراسة والموسوم بـ: بين مكة وحضر موت (رحلات ومشاهدات)[١]، وهذا السفر رحلات ومشاهدات في البلاد الممتدة من مكة والطائف إلى سروات منطقتي الباحة وعسير، ثم بلاد نجران وما حولها. ويقع هذا الكتاب في (٤٠٧) صفحة من القطع المتوسط[٢].

ونجد هذا الرحالة يخرج من مكة في (٣/شعبان/١٤٠٠هـ الموافق ١٨/ يونية ١٩٨٠م) صوب الطائف، ويجتاز عرفه ووادي نعمان، ثم صعد في جبل الهدا، وذكر صعوبة طريق الهدا في الماضي، وعند مروره معها في نهاية القرن الهجري الماضي وجد أن المدينة غزت هذه البلاد، فالعمران في وادي نعمان وفي الهدا بدأ يتحول إلى الأحسن، والطرق وبخاصة طريق الهدا أصبحت أفضل مما كانت عليه[٣]. وفي أثناء سيره ما بين

(١) طبع هذا الكتاب في مدينة مكة المكرمة، وفي دار مكة عام (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ويوجد في نهايته عدد من الفهارس الجيدة.

(٢) المرجع نفسه، ص١١ وما بعدها. وللمزيد انظر غيثان بن جريس. القول المكتوب في تاريخ الجنوب. جـ٣، ص٣٧٧، جـ٤، ص٦٧، جـ٥، ص ٧١، جـ٩ ص١٧٤.

(٣) عاتق البلادي، بين مكة وحضر موت، ص٧. دراسة البلاد الواقعة بين الطائف ومكة عن طريق الهدا وعن طريق وادي السيل تحتاج إلى أن يفرد لها دراسات عديدة في رسائل علمية أو مقالات في مجلات محكمة.

مكة حتى الطائف يذكر خلاصة ما شاهده من حضارة وتمدن ليس على حواضر الحجاز فقط وإنما عموم البلاد السعودية، فيقول: "والحقيقة أن النهضة التي حدثت في المملكة العربية السعودية بين عامي (١٣٩٥هـ / ١٤٠٠هـ) لا يستطيع أن يتصورها إلاّ من يعرف هذه المملكة في السبعينيات، ثم يراها اليوم، فقد حدث فيها ما يشبه الأساطير، فعمت السيارات بيوت البادية والحاضرة، وأنيرت القرى، وشربت المياه المعقمة بالصنابير، ووصلت إلى كثير منها طرق معبدة، ولم تبق قرية ليست فيها مدرسة ومسجد يصلى فيه، وهذا أمر لم يدخل حتى في عداد الأحلام سنة (١٣٧٥هـ) مثلاً"[(١)].

وأقول ليس الأستاذ البلادي هو الوحيد الذي يدون هذا الانطباع وهذه الحقائق الواضحة للعيان، وإنما هناك رواة ورحالون مسلمون وغيرهم، وآلاف الوثائق تؤكد على التطور والتمدن الذي تعيشه المملكة منذ توحيدها على يد الملك عبدالعزيز (يرحمه الله)، ومن بعد تسميتها باسم (المملكة العربية السعودية) في بداية الخمسينيات من القرن (١٤هـ/٢٠م)، أما في السبعينيات والثمانينيات من القرن نفسه فعجلة التمدن أخذت طريقها، وحققت انجازاتها ومشاريعها في التسعينيات ومنذ بداية هذا القرن (١٥هـ/٢٠م)، حتى وقتنا الحاضر، ولو قدر للبلادي وأمثاله من الرحالة الأوائل أن يسيروا اليوم في الطرق الواصلة بين جدة ومكة والطائف، ثم تجولوا في حاضرة الطائف فإنهم سوف يرون تحولات حضارية عملاقة في شتى ميادين الحياة، وهذا يدل على جهود الدولة الكبيرة المبذولة في خدمة الأرض والسكان في هذه الديار العربية الأصيلة[(٢)].

ويقول البلادي عن أعالي جبل الهدا، والتي تبعد عن وسط مدينة الطائف حوالي (١٨) كيلا: "كانت الهدا مزارع وقرى، حتى جاءت النهضة الحديثة، ومر فيها طريق كرا المزفت سنة (١٣٨٥هـ)، فتحولت إلى مدينة، فيها كل ما في المدن من خصائص، وتعتبر الهدا من المصايف الجميلة، ومياهها عذبة، غير أنها شحيحة، وأغرى أهلها الارتفاع الهائل الذي حدث في أسعار الأراضي، فأخذ كثير منهم يبيع أرضه، فتحولت بعض المزارع إلى مباني..."[(٣)].

---

(١) المرجع نفسه، ص٧. وأقول إن عاتق البلادي من أعلام المملكة العربية السعودية ويستحق أن يفرد له وانجازاته العلمية رسالة علمية أو كتاب علمي شامل يفصل ما عمل وقدم وحقق، وهذه مسئولية جامعاتنا المحلية وبخاصة جامعات مدن الحجاز الكبرى في مكة المكرمة وجدة، والمدينة المنورة، والطائف.

(٢) حبذا أن جامعات مكة المكرمة، وجدة، والطائف تقوم بمسئولياتها المنوطة بها، فتؤسس مراكز بحثية تقوم على دراسة أحوال هذه البلاد، وما جرى عليها من تطورات حضارية في شتى ميادين الحياة، وهذا العمل يجب أن يدرس ويوثق وينشر.

(٣) البلادي، بين مكة وحضر موت، ص ٨. ليس في الهدا فقط وإنما في عموم البلاد السعودية. وقد عاصرت حياة أهل تهامة والسراة منذ ثمانينيات القرن (١٤هـ/٢٠م) حتى اليوم، ورأيت كيف كانت معظم بلادهم أراض زراعية، ومع مرور الزمن وتحول الناس من القرى إلى المدن ودخولهم الوظائف الحكومية تدهورت الزراعة في هذه البلاد، وتحولت الكثير من الأراضي الزراعية إلى أراض عمرانية وسكنية. وهذا الطاهرة والتحول يستحق أن يدرس دراسة تاريخية حضارية.

وسار هذا الرحالة من مدينة الطائف دون أن يذكر شيء عن تاريخها أو نموها وحضارتها، ووصل وادي لية، جنوب الطائف، وقال أنه: "واد ذي شهرة وتأريخ، أهله ثقيف، ثم عتيبة، ثم عدوان في أسفله، ولرمانه شهرة لا تضاهى، ويبعد عن الطائف خمسة عشر كيلاً"[١]. ويواصل حديثه في الإشارة إلى بعض المواضع الواقعة جنوب وادي لية حتى وصل بلاد الجبوب التي تبعد عن الطائف حوالي (٨٥) كيلاً[٢].

والدكتور / عبدالرحمن صادق الشريف، فلسطيني الجنسية، وهو أستاذ جامعي عمل في بعض الجامعات السعودية وغيرها منذ بدايات هذا القرن (١٥هـ/٢٠م)، وأصدر عدداً من المؤلفات والبحوث الجغرافية عن المملكة العربية السعودية، وقام بالعديد من الجولات والرحلات في الحجاز وبلدان تهامة والسراة[٣]. ومن أفضل مؤلفاته كتابه الموسوم بـ" جغرافية المملكة العربية السعودية، في جزئين[٤]. والجزء الأول يناقش جغرافية المملكة العربية السعودية بشكل عام[٥]. والجزء الثاني خصصه المؤلف لجنوب غرب المملكة العربية السعودية، أو البلاد المعروفة بـ (بلاد تهامة والسراة) التي تشمل المنطقة الممتدة من الطائف إلى نجران، ومن مكة إلى جازان[٦].

وفي فصل مستقل أسماه (منطقة سروات الحجاز)، ويقصد بذلك البلاد السروية الممتدة من جنوب الطائف إلى حاضرة الباحة في بلاد غامد وزهران، وفي حوالي (٤٧) صفحة ناقش عدداً من المحاور الجغرافية والحضارية الرئيسية في هذه البلاد. وبدأ في نقاشه من ديار بني سعد الواقعة إلى الجنوب من حاضرة الطائف، ثم قضاء ميسان (بالحارث) إلى جنوبها، ثم بلاد ثقيف، وحداد بني مالك، والقريع في البلاد الواقعة بين سروات زهران وميسان بالحارث[٧]، وذكر صوراً من الحياة الاجتماعية،

---

(١) المرجع نفسه، ص ٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩-١١. هذه البلاد الممتدة من الطائف شمالاً إلى بلاد الجبوب (غزايل) ثم الباحة جنوباً تستحق أن يفرد لها دراسة مستقلة، وهذه الأوطان من أقل أجزاء بلاد السروات تدوينا لتاريخها وحضارتها. وأرجو أن يكون في العمر بقية حتى أقوم برحلة في هذه البلاد وأدون شيء من تاريخها وحضارتها عبر أطوار التاريخ الإسلامي.

(٣) حبذا أن تفرد رسالة ماجستير أو دكتوراه عن الدكتور عبدالرحمن الشريف وما بذله في ميدان البحث الجغرافي والرحلات، وهو يستحق أن يصدر عنه وعن جهوده دراسة علمية أكاديمية.

(٤) الجزء الأول من مطبوعات دار المريخ في الرياض عام (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ويقع في (٣٠١) صفحة من القطع المتوسط. والجزء الثاني، مطبوع في الدار نفسها عام (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ويقع في (٤٨٣) صفحة من القطع المتوسط.

(٥) عبدالرحمن الشريف، جغرافية المملكة العربية السعودية، جـ١، ص ٩ وما بعدها.

(٦) المرجع نفسه، جـ٢، ص ١٣ وما بعدها.

(٧) هذه البلاد الواقعة بين حاضرة الطائف وشمال منطقة الباحة، أطلق عليها هذا الباحث اسم (الاقليم الجبلي في جنوب الطائف)، ويمكن استبدال مفردة (الجبلي) بكلمة (السروي)، لأن هذه البلاد جزء من بلاد السراة الممتدة من الطائف شمالاً إلى بلاد ظهران ونجران جنوبا.

والزراعية، والتركيبتين الجغرافية والبشرية، في هذه الأوطان، وأشار إلى أن حياة التمدن فيها أقل بكثير من بلاد الطائف أو حتى مناطق الباحة وعسير[١]. ولم يذكر هذا الرحالة معلومات كثيرة أو ذات قيمة علمية كبيرة عن حاضرة الطائف، اللهم إلاّ إشارات بسيطة تذكر تبعيتها الإدارية إلى محافظة الطائف، وتصديرها بعض المواشي والحبوب إلى أسواق مدن الحجاز الكبيرة. ونقول إن هذه البلاد لا تختلف كثيراً في طبيعتها السكانية والجغرافية عن مناطق الطائف والباحة وعسير، ومع قربها من مدن الحجاز كالطائف ومكة، إلا أنها كانت وما زالت في عزلة، وتحتاج إلى جهود كبيرة في ميادين التنمية والتطوير، كما أنها تمتاز بكثرة قراها الصغيرة، وفيها بعض المراكز الإدارية المحلية التابعة لمحافظة الطائف[٢].

ثالثاً: وقفة قراءة ومقارنة للمؤرخين والرحالين ومدوناتهم:

١-تنوع ثقافات المؤرخين والجغرافيين والرحالين:

من خلال الاطلاع على فهارس هذا القسم نجد أن علوم التاريخ والجغرافيا والرحلة هي العمود الفقري الذي قامت عليه مادة هذا المبحث، كما أن المكان المقصود في هذه الدراسة هو حاضرة الطائف، ذات العراقة التاريخية والجغرافية، وذات الموقع المميز في بلاد الحجاز التي هي مهبط رسالة الإسلام ولهذا فقد أوردنا أسماء عدد (سبعة وستين) مؤرخاً ورحالة ذكروا الطائف ومكانتها الحضارية والتاريخية منذ بدايات عصر الإسلام إلى وقتنا الحاضر[٣].والذي نستنتجه من حياة هؤلاء العلماء، ومسيرتهم الثقافية والفكرية والعقدية والحضارية، ندرجه في نقاط عديدة، هي:

أ - هؤلاء المؤرخون والرحالة ولدوا وترعرعوا وتعلموا في بيئات مختلفة ومتفاوتة، ومعظمهم مسلمون جابوا بلداناً عربية وإسلامية كثيرة، كما أنهم عاشوا في أمكنة

---

(١) هذا الكلام حقيقة وما زالت حتى اليوم متواضعة في تمدنها وتنميتها، حتى وإن كانت أحسن حالاً مما كانت عليه في بداية هذا القرن (١٥هـ/٢٠م). وسوف أفرد لها دراسة مستقلة (بإذن الله تعالى) بعد أن أتجول في مناكبها، وأرجو أن يكون ذلك قريباً.

(٢) تاريخ الطائف ومكة المكرمة وصلاتها السياسية والحضارية ببلاد السروات الممتدة من الطائف شمالاً إلى بلاد غامد وزهران جنوباً تستحق أن يفرد لها عدد من الكتب والدراسات التي تناقش أوضاعها وصلاتها مع الحجاز منذ عصور ما قبل الإسلام وعبر أطوار التاريخ الإسلامي، ونأمل أن نرى بعض طلاب الدراسات العليا في جامعات الطائف ومكة المكرمة يتولون هذا الموضوع بالبحث والدراسة العلمية الموثقة.

(٣) للمزيد انظر أسماء هؤلاء الأعلام وتراجمهم في الصفحات السابقة من هذه الدراسة.

وحقب تتراوح في الفترة الممتدة من القرن الثاني الهجري إلى الخامس عشر الهجري (ق٨-٢١م)، ومنهم علماء وموسوعيون، مثل: أبي إسحاق الحربي وأبي الفرج قدامة بن جعفر، وأبي علي الهجري، والهمداني، والمسعودي، والمقدسي، والبكري، وياقوت الحموي، وابن جبير، والقزويني، وأبي الفداء، وابن فضل الله العُمري، وابن بطوطة، وشكيب أرسلان، والزركلي، وفلبي، وحمد الجاسر، ومحمود شاكر وغيرهم[١].

ب- يتضح أن معظم الجغرافيين والمؤرخين قد تعلموا على أيدي علماء ومدارس علمية جيدة، كما أن بعضهم من المتقدمين والمتأخرين كانوا يجيدون لغات أخرى إلى جانب اللغة العربية التي كتبوا بها بعض بحوثهم وجمعوا بها مادتهم العلمية أثناء مجيئهم إلى الحجاز وزيارتهم بلاد الطائف والكتابة عنها.

جـ- غالبية المؤرخين والجغرافيين المذكورين هم مسلمون، على مذهب أهل السنة والجماعة، وربما كان بعضهم يعتقد المذهب الشيعي، كما أن فيهم غير مسلمين جاءوا من بيئات نصرانية أو يهودية، أو بوذية، ورغب بعضهم الدخول إلى الأماكن المقدسة، فأعلنوا إسلامهم وبعضهم لم يكن صادقاً في اعتناقه الإسلام، لكن كان لهم أهداف سياسية واستخباراتية وربما اقتصادية أو علمية مثل: بوركهارت، وليون روش، وتاميزيه، وشارل ديدييه، وداوتي، وسنوك، وفلبي، وتويتشل، وولفرد ثسيجر، وليبنز وغيرهم[٢].

د- من يدرس حياة وثقافة وتجارب وانجازات كل واحد من هؤلاء المؤرخين والرحالة بشكل منفرد، فإنه سوف يجد كماً هائلاً من الفكر والثقافة والمعارف التي يتميز بها كل علم من هؤلاء العلماء، كما أنه سوف يجد التفاوت في مستوى علومهم وثقافتهم. فعلماء العصر الإسلامي المبكر والوسيط أعمق وأوسع وأكثر تنوعاً في العلوم والثقافة، كما أنه سوف يجد بعضهم كانوا على علاقات جيدة بصناع القرار في بعض الحكومات والدول التي عاصروها، أو أن بعضهم كانوا من كبار موظفي دولهم، في حين أن هناك من كان يعيش عيشة متوسطة أو دون المتوسطة. والأمر نفسه مع المؤرخين والرحالين المتأخرين وبخاصة من القرن (١٢-١٥هـ/ق١٨-٢١م)، فقد كان بعض الأوروبيين مثل:

---

(١) انهم نماذج من هؤلاء العلماء والرحالين، وما زال غيرهم، في هذه الدراسة، من الباحثين واسعي الاطلاع. وأقول أن كل عالم يستحق أن يفرد له دراسات علمية عديدة، ونأمل أن نرى أقسام التاريخ في بلادنا العربية السعودية فتوجه طلابها وأساتذتها لدراسة حياة وانجازات هؤلاء المؤرخين والجغرافيين القديرين.

(٢) هؤلاء الرحالة الأجانب جديرين بالدراسة وبخاصة أهدافهم، ورحلاتهم، وانجازاتهم، وما قدموا من سلبيات وإيجابيات أثناء تنقلاتهم في شبه الجزيرة العربية. وما من شك فإنهم قدموا لنا مادة علمية جيدة عن أرض وسكان شبه الجزيرة العربية، قد لا نجدها في أي مصدر أو مرجع آخر.

بوركهارت، وليون روش، وتاميزيه، وشارل ديدييه، وفلبي وغيرهم مدعومين مادياً وسياسياً من حكوماتهم، وذلك لتحقيق بعض الأهداف السياسية والاستخباراتية المرسومة لهم، وأيضاً من بعض الحكومات الإسلامية والعربية داخل الجزيرة العربية وخارجها، مثل: العثمانيين ومحمد علي باشا، والأشراف في الحجاز، وعبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل وغيرهم.

هـ- لا تخلو رحلات هؤلاء المؤرخين والرحالين من بعض السلبيات سواءً في ما جمعوه ودونوه أثناء حديثهم عن الحجاز أو الطائف بشكل خاص، أو فيما يعتقده بعضهم من أهداف أو توجهات سلبية عامة أو خاصة. لكن الجانب الايجابي في مادتهم المدونة يحمل نسبة عالية من الجودة وندرة المعلومات وحفظها من الضياع، واطلاعنا على بعض الصور التاريخية والحضارية التي لا نجدها في مصادر أخرى غير كتب التاريخ والرحلات[١].

٢-المصادر والمنهج المستخدم في جمع المادة:

تنوعت مناهج هؤلاء المؤرخين والجغرافيين أثناء حديثهم عن الطائف، وهذا التنوع تبلور في النقاط التالية:

أ - هناك عدد من المؤرخين الذين زاروا الطائف وأقاموا فيه، ومنهم من ولد وعاش ومات في الطائف، ودونوا مؤلفات خاصة عن الطائف وأهلها، ومن أولئك: ابن أبي الصيف، والميورقي، والفيروزآبادي، وابن فهد، وابن عراق الكناني، وعبدالقادر الفاكهي، ومحمد البكري، والعجمي، والقنوى، والقاري، وجميعهم كتبوا عن الطائف، ومعظم مدوناتهم في إطار فضائل الطائف، ووادي وج، وعبدالله بن عباس ومسجده، كما أن جل كتاباتهم ينقلها اللاحق عن السابق، ولا تخلو بحوثهم من معلومات تاريخية وحضارية جيدة عن جغرافية الطائف وأهلها.

ب- بعض الرحالين والجغرافيين لم يزوروا الطائف، وإنما نقلوا ما كتبوه عن هذه المدينة الحجازية من بعض المصادر التي اطلعوا عليها، ومنهم من جاءوا إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة وقابلوا بعض الطائفيين أو السرويين فسمعوا منهم عن الطائف،

---

(١) أقول إن دراسة ثقافات هؤلاء المؤرخين والرحالين الوارد ذكرهم في هذا البحث يحتاج إلى عمق وتوسع، ومن يفعل ذلك فقد يطلعنا على دراسة علمية قيمة، وآمل أن نرى أحد طلابنا في برنامج الدراسات العليا بقسم التاريخ في جامعة الملك خالد يدرس التاريخ الثقافي لهؤلاء الرحالة أو بعضهم أو أحدهم.

ونقلوا بعض رواياتهم وأخبارهم عن تلك البلاد، وربما سجلوا بعض أوصافهم الخِلقية والخُلقية، وذكروا شيئاً من اقوالهم ومعارفهم ولهجاتهم[١].

ج- أما المادة العلمية الجيدة والغزيرة في معلوماتها وفي تنوعها، فكان الحصول عليها من خلال زيارة الطائف، والتجوال في ربوعها. ومن العلماء والرحالين الذين أفادونا في هذا الباب: عرام بن الأصبغ السلمي، وأبو علي الهجري، ولسان اليمن الهمداني، وناصر خسرو فهؤلاء جميعاً تنقلوا في ربوع شبه الجزيرة العربية وجاءوا إلى الطائف وكتبوا عن معالمها الجغرافية وتركيبتها السكانية، وذكروا شيئاً من حياة أهلها الاجتماعية والاقتصادية، وجميعهم في الفترة الممتدة من القرن (٢-٥هـ/ ق٨-١١م)[٢]. والأفضل منهم في غزارة المعلومات وتنوعها الرحالة الذين جاءوا إلى الطائف منذ القرن (١١هـ/١٧م) إلى بدايات القرن (١٥هـ / ٢٠م)، ومنهم: العياشي، والموسوي، وبوركهارت، وليون روش، وشارل ديدييه، وأيوب صبري، ومحمد صادق باشا، وشكيب أرسلان، ومحمد حسين هيكل، والزركلي، وفلبي، وفؤاد حمزة، وتويتشل، ومحمد رفيع، ومحمد رفعت المحامي، وحمد الجاسر وغيرهم. فجميعهم زاروا الطائف وما حولها، وكتبوا تفصيلات مطولة عن أرضها وسكانها، وأشاروا إلى صور من تاريخها الحضاري والتنموي[٣].

وكل ما وجدناه مكتوباً عند هؤلاء المؤرخين والرحالين عن بلاد الطائف هو سرد علمي جيد عن تاريخ وحضارة الطائف، لكننا لا نجد في أساليبهم مناهج المقارنة أو التحليل لما تم رصده وتدوينه. والرحالة الغربيين يتفوقون أحياناً في جودة معلوماتهم ورصانتها، كما أن بعض الرحالة العرب والمسلمين لا يقلون في تميزهم عن الغربيين، ومن أولئك شكيب ارسلان، والبركاتي، ومحمد حسين هيكل، والزركلي فلقد سجلوا

---

(١) هؤلاء الجغرافيون والرحالون الذين لم يزوروا الطائف كتبوا عنها نقلاً من بعض المصادر، أو سماعاً من بعض الرواة، ومنهم: أبو عبيدالله بن خرداذبة، وابن الفقيه، وابن رسته، والاصطخري، وابن حوقل، والمقدسي، والإدريسي، وابن جبير، وابن بطوطة، وغيرهم. وهؤلاء العلماء يستحقون الدراسة مع التركيز على مدوناتهم عن بلاد الحجاز وتهامة والسراة.

(٢) هؤلاء الرحالون جديرون بالبحث والدراسة مع التركيز على جهودهم المبذولة في جغرافية وتاريخ الطائف وبلاد تهامة والسراة. حبذا أن نرى باحثاً جاداً يدرس ما دونوا عن هذه الأوطان.

(٣) وأقول إن كل واحد من هؤلاء الرحالين يستحق أن يفرد له دراسة مستقلة وما دون عن مدن الحجاز الرئيسية بما في ذلك الطائف. ومن يفعل ذلك فسوف يسدي لنا معاشر الباحثين هدية قيمة يوضح لنا فيها صفحات من تاريخ وحضارة هذه البلاد العربية.

معلومات قيمة من خلال مشاهداتهم وجولاتهم في مدينة الطائف وما جاورها من الجبال والأودية والوهاد[١].

٣) كلمة عن المادة العلمية وأهميتها:

لا نستغرب من سرد أسماء مؤرخين ورحالين عديدون أشاروا إلى تاريخ وحضارة الطائف. ولم نشمل كل الرحالة والجغرافيين الذين زاروا الطائف أو تحدثوا عنها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وما زال هناك كثيرون من علماء وقضاة وطلبة علم وساسة وغيرهم دونوا شيئاً عن بلاد الطائف (أرضاً وسكاناً)[٢]. وفي هذه المؤلفات التي اطلعنا عليها عند هؤلاء المؤرخين والرحالين نلحظ شموليتها، حيث ذكرت صوراً تاريخية، واقتصادية، واجتماعية، وثقافية، وفكرية، وجغرافية، وشيء من الآثار وغيرها[٣]. وهي تتفاوت من عالم إلى آخر، فالبعض منها اشارت فقط إلى الطائف، وكان جل تركيزها على المدن المقدسة في الحجاز (مكة المكرمة والمدينة المنورة)، وآخرون أفردوا صفحات وأحياناً فصولاً عن مدينة الطائف وما شاهدوه فيها وبخاصة في الحياتين الاقتصادية والاجتماعية. وهناك رحالة آخرون أشاروا فقط إلى بعض المعالم الجغرافية والتاريخية وسط المدينة (الطائف القديمة)، وعدد من هذه المؤلفات أشارت أحياناً إلى بعض أعلام الحجاز مثل الأمراء والقضاة وغيرهم[٤].

وجمال أرض الطائف، وجودة مناخها، جعلت بعض هؤلاء المؤلفين يذكرون شيئاً من حسن طبيعتها، وأهميتها سياسياً، لأن صناع القرار في مكة المكرمة عبر أطوار التاريخ الإسلامي حتى القرن (١٣هـ/١٩م) يقضون جزءاً من أوقاتهم في الطائف،

---

(١) حبذا أن نرى باحثاً جاداً يدرس مدونات وأقوال رحالة القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م)، عن حاضرة الطائف. وهذا الموضوع يستحق أن يصدر في كتاب أو رسالة علمية أكاديمية. بل إن الطائف في عيون الرحالة عبر أطوار التاريخ الاسلام، موضوع جدير بالدراسة في عدد من الكتب والبحوث العلمية.

(٢) هذا الموضوع مهم جداً ويستحق حصر معظم العلماء والقضاة وغيرهم الذين زاروا الطائف أو عاشوا فيها ودونوا شيئاً مما عاصروه أو عرفوه أو كتبوه.

(٣) نعم ذكرت معظم هذه المؤلفات شيئاً من هذا التاريخ، لكنها لم تفصل وترسم لنا صورة واضحة وجلية عن تاريخ وحضارة هذه البلاد خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة والحديثة.

(٤) أرض الطائف مهمة بالنسبة لمكة المكرمة، وهذه الأهمية جعلت عدداً من المؤرخين، والأدباء، والعلماء يزورون الطائف ويكتبون شيئاً من حضارتها. وللأسف أن هناك أعلاماً وأرباب قلم سجلوا بعض المعلومات عن هذه البلاد، لكن ما سجلوه لم يصلنا وربما ضاع، أو ما زال محفوظاً في أمكنة لا نعلمها.

وأحياناً بعض الوزراء أو السلاطين أو رجال الدولة الإسلامية في العراق أو مصر منذ عهد الدولة العباسية إلى نهاية عصر الدولة العثمانية[١].

واستمرت هذه الأهمية في عهد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود وأولاده الملوك (سعود، وفيصل، وخالد) فكانوا ينقلون أمور الدولة في الصيف إلى الطائف، ومن هناك تدار البلاد داخلياً وخارجياً. وهذا العامل السياسي والإداري اثر إيجابياً في مسيرة الطائف التاريخية والحضارية حيث ذكرت عند كثير من الباحثين والمؤرخين والجغرافيين والسياسيين وغيرهم[٢].

إن معظم الذين كتبوا عن الطائف، عبر أطوار التاريخ الإسلامي كان جل حديثهم عن المدينة، وأحياناً الأمكنة القريبة منها، ولا نجد أحداً منهم يفصل لنا الحديث عن محافظة الطائف بمفهومها الواسع اليوم، بل إن أرياف الطائف وبواديها وكثيراً من قراها والأجزاء التهامية فيها غير معروفة عندنا، ولا نجد معلومات صحيحة تصور لنا تاريخ هذه البلاد البعيدة عن حاضرة الطائف الرئيسية[٣].

رابعاً: آراء وتوصيات:

لا ندعي الكمال، أو استيفاء كل ما يجب أو يستحق تدوينه عن الطائف وبخاصة عند شريحة المؤرخين والرحالين. وإنما أوردنا صوراً من تاريخ وحضارة هذه البلاد عند هؤلاء العلماء الذين جاءوا من ثقافات وبيئات مختلفة والمسئولية كبيرة على جامعة ومحافظة الطائف، وعلى مركز الطائف التاريخي فيضاعفوا الجهود لدراسة وحفظ موروث هذه

---

(١) اتصال الخلفاء والسلاطين والأمراء بالحجاز، ووصول بعضهم إلى الحجاز والإقامة فيها لبعض الوقت عبر أطوار التاريخ الإسلامي من الموضوعات التي لم تدرس. ويستحق هذا الباب أن يدرس في عدد من الكتب والرسائل العلمية، مع توضيح الجوانب الايجابية والسلبية التي عاشها الطائف والطائفيون خلال عصور وزيارات أولئك الرموز السياسية والإدارية.

(٢) اتخاذ الطائف عاصمة سياسية في الصيف خلال عصور ملوك آل سعود في العصر الحديث من الموضوعات التي يجب دراستها في عدد من الكتب والبحوث، مع توضيح ما جرى لبلاد الطائف من تطور وتنمية وبخاصة منذ أربعينيات القرن (١٤هـ/٢٠م) إلى بدايات هذا القرن (١٥هـ/٢٠م).

(٣) هناك أمكنة منزوية أو معزولة في شبه الجزيرة العربية، وبعض قرى وبوادي وأرياف محافظة الطائف من البلدان التي أصابها إهمال التدوين منذ عصور ما قبل الإسلام حتى وقتنا الحاضر. وقد تجولت في بعض أجزاء المحافظة الجنوبية، والشرقية فوجدتها ارضاً مأهولة بالسكان منذ القدم، ويوجد فيها جميع مقومات الحياة من عمران، وزراعة، ورعي، وصيد، وأسواق وتجارات وغيرها. بل يوجد في جبالها وعلى صخورها آثار ورسومات صخرية تؤكد قدم النشاط الحضاري في هذه البلاد. وعندما نحاول معرفة شيء من تاريخها القديم أو الحديث لا نجد مصادر مدونة أو مكتوبة تذكر شيئاً من ذلك.

البلاد العربية الحجازية العريقة[١]. ولن يترجم ذلك إلى واقع إلا بتضافر الجهود بين هذه المؤسسات، ثم توفير الدعمين المادي والمعنوي لمن يقوم بالبحث والدراسة. ومن خلال جولاتي في محافظة الطائف[٢]، وجدت أنها تحتوي على كنوز تاريخية عبر أطوار التاريخ، وإذا جلب باحثين متخصصين جادين ليقوموا بجمع هذا الموروث ودراسته فإننا وأبناءنا وحفدتنا سوف نطلع على أمجاد وحضارات عريقة عاشتها بلاد الطائف منذ عصور ما قبل الإسلام، وعلى مر العصور الإسلامية المختلفة[٣].

ا

(١) إذا قامت هذه المؤسسات بمسئولياتها تجاه العلم والثقافة، مع توفر الدعم والنزاهة، فإن النتائج (بإذن الله تعالى) سوف تكون جيدة وإيجابية.

(٢) للمزيد انظر رحلتنا في محافظة الطائف في القسم الثاني من هذا المجلد.

(٣) لم تكن الطائف هي البلاد الوحيدة التي لها تاريخ عريق، وإنما معظم بلدان شبه الجزيرة العربية ذات تواريخ وحضارات متفاوتة في القوة والضعف. وهذا ما عرفته أثناء زيارتي لبلدان عديدة في هذه الجزيرة. وبلاد الحجاز، وأرض تهامة والسراة، وبلاد اليمن تعد من أكثر الأوطان التي شهدت أحداثاً تاريخية مختلفة، وفيها أنماط حضارية متعددة. وللأسف أنها ما زالت بحاجة إلى بحث ودراسات وجهود كبيرة تنقب عن تراثها وحضاراتها. وعصرنا الحالي ربما يكون أفضل العصور حيث توفرت مؤسسات التعليم المختلفة، وتعدد الباحثون وأرباب القلم، وتوفرت الأموال، والواجب أن تسخر كل هذه العوامل في جمع وحفظ موروث وتواريخ وحضارة هذه البلدان العربية الأصيلة.